An Introduction to

Zen Buddhism

D.T. Suzuki

Foreword by Carl Jung

ترجمة مجموعة الروح، ما في الجنة إلا الله

مقدمة

لبوذية زن

أعمال أخرى من قبل د.ت. سوزوكي

مقالات في بوذية الزن
دليل بوذية زن

مقدمة
لبوذية زن

دايسيتز تيتارو سوزوكي

مع مقدمة بقلم
كارل يونغ

Grove Press
New York

حقوق الطبع والنشر © 1964 من قبل د.ت. سوزوكي

جميع الحقوق محفوظة لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل أو وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك أنظمة تخزين المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر، باستثناء الاقتباسات القصيرة يحظر مسح هذا الكتاب ضوئيًا وتحميله وتوزيعه إلكترونيًا أو تسهيل ذلك دون إذن الناشر. يرجى شراء النسخ الإلكترونية المصرح بها فقط، ولا تشارك في أو تشجع على القرصنة الإلكترونية للمواد المحمية بحقوق النشر. نقدر دعمك لحقوق المؤلف. يجب على أي عضو في المؤسسات التعليمية يرغب في تصوير جزء من العمل أو كله للاستخدام في الفصول الدراسية، أو المختارات، إرسال استفسارات إلى Grove/Atlantic، Inc.، 841 Broadway، New York، NY 10003 أو permissions@groveatlantic.com.

طبع في الولايات المتحدة الأمريكية

مكتبة الكونغرس فهرس رقم البطاقة 61-٠14383

الكتاب الإلكتروني ISBN -13: 978-0-8021-9874-7

Grove Press.

بصمة Grove/Atlantic, Inc.

841 Broadway.

نيويورك، نيويورك 10003

تم التوزيع بواسطة Publishers Group West

www.groveatlantic.com

المحتويات

تمهيد

تم كتابة المقالات التي تم جمعها هنا في الأصل للشرق الجديد، والتي نشرت في اليابان خلال حرب 1914 تحت رئاسة تحرير السيد روبرتسون سكوت. اقترح المحرر نشرها في شكل كتاب، لكنني لم أشعر بالرغبة في القيام بذلك في ذلك الوقت. وفي وقت لاحق، تم اتخاذها أساسًا للسلسلة الأولى من مقالاتي في الزن (1927)، والتي تغطي بطبيعة الحال نفس الموضوع تقريبًا.

خطرت لي مؤخراً فكرة إعادة طباعة الأوراق القديمة في شكل كتاب. والسبب هو أن كتابي "مقالات الزن" ثقيل للغاية بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في الحصول على معرفة تمهيدية بسيطة عن الزن. لذلك، ألن يرحب بعض أصدقائي الأجانب بما يمكن اعتباره عملًا تمهيديًا؟

وبناءً على ذلك، قمت بمراجعة المخطوطة بأكملها، وتم تصحيح أي أخطاء وجدتها فيما يتعلق بالأسلوب اللغوي وكذلك المواد المستخدمة. على الرغم من وجود عدد لا بأس به من النقاط التي أود أن أراها الآن معبر عنها بشكل مختلف إلى حد ما، فقد تركتها كما هي، لأن مراجعتها تتضمن حتماً إعادة صياغة السياق بأكمله. طالما أنها لا تحريف الحقائق، فيمكن أن تبقى كما هي مكتوبة.

إذا كان الكتاب بمثابة مقدمة للبوذية الزن، ويقود القارئ إلى دراسة أعمالي الأخرى، فإن الهدف يتحقق. لا يُدّعى هنا تقديم معالجة أكاديمية للموضوع.

يوصى باستخدام الكتاب المصاحب ، دليل بوذية زن ، مع هذه المقدمة.

د.ت.س

كاماكورا، أغسطس 1934

مقدمة

بقلم الدكتور سي جي يونغ

تُعدّ أعمال دايسيتز تيتارو سوزوكي حول بوذية الزن من بين أفضل المساهمات في معرفة البوذية الحية التي أنتجتها العقود الأخيرة، والزن نفسه هو أهم ثمرة نبتت من تلك الشجرة التي جذورها مجموعات بالي كانون.[1] لا يسعنا إلا أن نكون ممتنين للمؤلف، أولاً لأنه قرّب الزن من الفهم الغربي، وثانياً للطريقة التي أنجز بها هذه المهمة. عادة ما تكون المفاهيم الدينية الشرقية مختلفة تمامًا عن مفاهيمنا الغربية لدرجة أن ترجمة الكلمات نفسها تواجه المرء بأكبر الصعوبات، بصرف النظر عن معنى الأفكار المطروحة، والتي من الأفضل في بعض الظروف تركها دون ترجمة. يكفي أن أذكر كلمة "طاو" الصينية، التي لم تحقق أي ترجمة أوروبية لها حتى الآن. تحتوي الكتابات البوذية الأصلية نفسها على آراء وأفكار يصعب استيعابها إلى حد كبير من قبل الفهم الغربي العادي. لا أعرف، على سبيل المثال، ما هي الخلفية الروحية (أو ربما المناخية؟) أو الإعداد اللازم قبل أن يتمكن المرء من استخلاص أي فكرة واضحة تمامًا من الكارما البوذية. على الرغم من كل ما نعرفه عن جوهر الزن، إلا أن هناك أيضاً مسألة إدراك مركزي للتفرد الذي لا مثيل له. يُطلق على هذا الإدراك الغريب اسم الساتوري، ويمكن ترجمته إلى "التنوير". يقول سوزوكي (انظر الصفحة 65)، "الساتوري هو سبب وجود زن، وبدونه لا يوجد زن". لا ينبغي أن يكون من الصعب على العقل الغربي أن يفهم ما يفهمه المتصوف من "التنوير"، أو ما يُعرف باسم "التنوير" في اللغة الدينية. ومع ذلك، فإن الساتوري يصور فنًا وطريقة للتنوير يكاد يكون من المستحيل على الأوروبي تقديرها. أود أن أشير إلى تنوير هياكوجو (باي تشانغ هواي هاي،724-814 م) في الصفحة 59، والأسطورة في الصفحات 62-63 من هذا الكتاب.

قد يكون المثال التالي بمثابة مثال آخر: ذهب راهب ذات مرة إلى جينشا، وأراد أن يعرف أين يقع مدخل طريق الحقيقة. سأله جينشا: "هل تسمع خرير الجدول؟" أجاب الراهب: "نعم، أسمع ذلك". "هذا هو المدخل"، هكذا أمره المعلم.

سأكتفي بهذه الأمثلة القليلة، التي توضح بوضوح غموض تجارب الساتوري . حتى لو أخذنا مثالاً تلو الآخر، فإنه لا يزال من غير الواضح للغاية كيف يأتي هذا التنوير ومما يتكون؛ بعبارة أخرى، من خلال ماذا أو عن ماذا يستنير المرء. يقول كايتن نوكاريا، الذي كان أستاذاً في كلية سو-تو-شو البوذية في طوكيو،[2] متحدثاً عن التنوير:

"بعد أن حررنا أنفسنا من المفهوم الخاطئ للذات، يجب علينا بعد ذلك أن نوقظ حكمتنا الداخلية، النقية والإلهية، والتي يطلق عليها أساتذة الزن اسم عقل بوذا، أو بودي، أو براجنا." إنه النور الإلهي، والسماء الداخلية، ومفتاح كل الكنوز الأخلاقية، ومصدر كل النفوذ والقوة، ومقر اللطف والعدل والتعاطف والحب غير المتحيز والإنسانية والرحمة، ومقياس كل شيء. عندما تستيقظ هذه الحكمة الداخلية بالكامل، نصبح قادرين على إدراك أن كل واحد منا متطابق في الروح والجوهر والطبيعة مع الحياة الكونية أو بوذا، وأن كل واحد يعيش دائمًا وجهًا لوجه مع بوذا، وأن كل واحد محاط بنعمة المبارك الوفيرة، وأنه يوقظ طبيعته الأخلاقية، ويفتح عينيه الروحيتين، ويكشف عن قدراته الجديدة، ويحدد مهمته، وأن الحياة ليست محيطًا من الولادة والمرض والشيخوخة والموت، ولا وادي الدموع، بل هي معبد بوذا المقدس، الأرض الطاهرة، حيث يمكنه التمتع بنعيم النيرفانا.

ثم تمر عقولنا بثورة كاملة. لم نعد نعاني من الغضب والكراهية، ولم نعد نعاني من الحسد والطموح، ولم نعد نعاني من الحزن والأسى، ولم نعد نغرق في الكآبة واليأس، إلخ.

هكذا يصف أحد الشرقيين، وهو نفسه تلميذ للزن، جوهر التنوير. لا بد من الاعتراف بأن هذا المقطع لا يحتاج إلا إلى تعديلات طفيفة للغاية حتى لا يكون غريباً في أي كتاب عبادة صوفية مسيحية. ومع ذلك، فإنه بطريقة ما يفشل في مساعدتنا فيما يتعلق بفهم تجربة الساتوري التي يصفها هذا التفسير الشامل. من المفترض أن نوكاريا يتحدث إلى العقلانية الغربية، التي اكتسب هو نفسه جرعة جيدة منها، ولهذا السبب يبدو كل شيء مفيدًا للغاية. إن الغموض الغامض لحكايات الزن أفضل من هذا التعديل: *(دلفين كلاسيكس) ad usum Delphini*؛ فهو ينقل الكثير، بينما يقول أقل.

إن الزن ليس فلسفة بالمعنى الغربي للكلمة.[3] هذا هو الرأي الذي عبر عنه رودولف أوتو في مقدمته لكتاب أوهاساما عن الزن، عندما يقول إن نوكاريا قد وضع العالم الشرقي السحري للأفكار في فئاتنا الفلسفية الغربية، وخلطه بها. إذا تم اللجوء إلى التوازي النفسي الجسدي، وهو أكثر المذاهب جمودًا، لتفسير هذا الحدس الصوفي عن اللا ثنائية *(Nichtzweiheit)* والوحدة والتوافق العكسي *(companidentia oppositorium)*، فإن المرء يُطرد تمامًا من عالم الكوآن والكواتسو والساتوري .[4]من الأفضل بكثير أن يسمح المرء لنفسه بالانغماس العميق مسبقًا في غموض حكايات الزن الغريبة، وأن يضع في اعتباره طوال الوقت أن الساتوري سرٌّ لا يوصف، كما يرغب أساتذة الزن بالفعل. بين الحكايات والتنوير الصوفي، توجد، بالنسبة لفهمنا، هوة، وإمكانية ردمها لا يمكن في أحسن الأحوال إلا الإشارة إليها ولكن لا يمكن تحقيقها عمليًا.[5]يشعر المرء وكأنه يلامس سرًا حقيقيًا، وليس شيئًا متخيلًا أو متظاهرًا به؛ هذه ليست حالة من السرية الغامضة، بل هي بالأحرى تجربة تحير جميع اللغات. يأتي الساتوري كشيء غير متوقع، لا يمكن توقعه.

عندما يتم تقديم رؤى عن الثالوث المقدس، والعذراء، والصلب، أو القديس الشفيع في نطاق المسيحية، ينتاب المرء شعور بأن هذا هو الوضع الطبيعي إلى حد كبير. من المفهوم أيضاً أن يتمكن جاكوب بوهم من إلقاء نظرة خاطفة على مركز الطبيعة من خلال شعاع الشمس المنعكس في الصفيحة المعدنية. من الصعب قبول رؤية السيد إيكهارت لـ "الصبي الصغير العاري"،[6]أو حتى "الرجل ذو المعطف الأحمر" عند سويدنبورغ الذي أراد أن يفطمه عن الإفراط في تناول الطعام، والذي، على الرغم من ذلك أو ربما بسببه، اعترف به على أنه الرب الإله.[7]يصعب قبول مثل هذه الأمور، لأنها تقترب من الغرابة. لكن العديد من تجارب الساتوري لا تقترب فقط من الغرابة؛ بل إنها موجودة في خضمها، وتبدو وكأنها هراء تام.

أما بالنسبة لأي شخص كرس وقتاً طويلاً لدراسة الطبيعة الزهرية لروح الشرق الأقصى بعناية ومحبة وفهم، فإن العديد من هذه الأشياء المذهلة، التي تدفع الأوروبي البسيط للغاية من حيرة إلى أخرى، تتلاشى. إن الزن هو بالفعل أحد أروع أزهار الروح الصينية،[8] والتي تشربت بسهولة من خلال عالم الفكر الهائل للبوذية. لذلك، فإن من حاول حقاً فهم العقيدة البوذية، ولو إلى حد معين فقط - أي من خلال التخلي عن مختلف الأحكام المسبقة الغربية - سيكتشف أعماقاً معينة تحت عباءة تجارب الساتوري الفردية الغريبة، أو سيشعر بصعوبات مقلقة اعتبرها الغرب الفلسفي والديني حتى الآن مناسبة للتجاهل. كفيلسوف، يهتم المرء حصرياً بذلك الفهم الذي، من جانبه، لا علاقة له بالحياة. وبصفته مسيحياً، لا علاقة له بالوثنية ("أشكرك يا رب، لأني لست مثل سائر الناس"). لا يوجد الساتوري ضمن هذه الحدود الغربية - فهذا شأن شرقي. لكن هل هذا صحيح حقاً؟ هل في الحقيقة، ليس لدينا أي الساتوري؟

عندما يفحص المرء نص الزن بانتباه، لا يمكنه الهروب من الانطباع بأنه، مع كل ما هو غريب فيه، فإن الساتوري في الواقع مسألة حدوث طبيعي، لشيء بسيط للغاية[9] لدرجة أن المرء يفشل في رؤية الغابة من كثرة الأشجار، وفي محاولة شرحه، يقول دائمًا الشيء نفسه الذي يدفع الآخرين إلى أكبر قدر من الارتباك. لذلك فإن نوكاريا [10] محق عندما يقول إن أي محاولة لشرح أو تحليل محتويات الزن فيما يتعلق بالتنوير ستكون عبثية. ومع ذلك، يجرؤ هذا المؤلف على القول بأن التنوير يشمل فهمًا لطبيعة الذات، وأنه تحرير للوعي من مفهوم وهمي للذات.[11] إن الوهم المتعلق بطبيعة الذات هو الخلط الشائع بين الأنا والذات. يفهم نوكاريا من كلمة "الذات" بوذا الكل، أي ببساطة الوعي الكامل *(Be-wusstseinstotalität)* للحياة. ويستشهد ببان شان الذي يقول: "إن عالم العقل يحيط بالكون بأكمله في نوره"، مضيفًا: "إنها حياة كونية وروح كونية، وفي الوقت نفسه حياة فردية وروح فردية".[12]

مهما كان تعريف الذات، فهي دائماً شيء آخر غير الأنا، وبما أن الفهم الأعلى للأنا يؤدي إلى الذات، فإن الأخيرة هي شيء ذو نطاق أوسع، يشمل معرفة الأنا وبالتالي يتجاوزها. بنفس الطريقة التي تكون بها الأنا معرفة معينة بذاتي، فإن الذات هي معرفة الأنا، والتي لم تعد تُختبر في شكل أنا أوسع أو أعلى، ولكن في شكل لا أنا *(Nicht-Ich)*.

هذه الأفكار مألوفة أيضاً لمؤلف كتاب "اللاهوت الألماني [13]": "أي مخلوق يريد أن يدرك هذا الكمال يجب أن يفقد أولاً كل ما يشبه المخلوق *(Geschopfesart)* وكل ما هو شيء *(Etwasheit)* وكل ما هو ذاتي". إذا أخذت أي خير لنفسي، فإن ذلك يأتي من وهم أنه ملكي، أو أنني خيّر. هذا دائماً دليل على النقص والحماقة. لو كنتُ مدركاً للحقيقة، لكنتُ أيضاً مدركاً أنني لستُ صالحاً، وأن الصلاح ليس لي وليس مني. "يقول الإنسان: 'يا لي من أحمق مسكين، كنت أعيش في وهم أنني هو، لكنني أجد أن هو وكان، الله حقًا'."

هذا يدل بالفعل على قدر كبير من المعلومات المتعلقة بمحتويات التنوير. يتم تفسير حدوث الساتوري وصياغته على أنه اختراق للوعي المقتصر على شكل الأنا في شكل الذات غير الشبيهة بالأنا. يتوافق هذا المفهوم مع طبيعة الزن، وكذلك مع التصوف لدى المعلم إيكهارت.[14] يقول المعلم في عظته عن "طوبى للمساكين بالروح": "عندما خرجت من عند الله، قالت كل الأشياء: 'هناك إله!'" لكن ذلك لا يمكن أن يجعلني سعيداً، لأنني أتصور نفسي من خلاله مخلوقاً. لكن في لحظة الاختراق، [15] عندما أرغب في أن أبقى فارغًا في إرادة الله، وفارغًا أيضًا من إرادة الله هذه ومن كل أعماله، ومن الله نفسه - فأنا حينها أكثر من جميع المخلوقات، لأني لست إلهًا ولا مخلوقًا: أنا ما أنا عليه، وما سأبقى عليه، الآن وإلى الأبد! ثم أتلقى هزة قوية، ترفعني فوق كل الملائكة. في هذه اللحظة، أصبحت غنياً لدرجة أن الله لا يكفيني، على الرغم من كل ما هو عليه كإله، وعلى الرغم من كل أعماله الإلهية؛ لأنه في هذا الاختراق أدرك ما هو مشترك بيني وبين الله. أنا إذن ما كنت عليه، [16] لا أنقص ولا أزيد، لأني كائن ثابت لا يتزعزع يحرك كل الأشياء. هنا لم يعد الله يسكن في الإنسان، لأن الإنسان من خلال فقره قد استعاد ما كان عليه دائماً وسيظل عليه دائماً.

هنا يصف المعلم في الواقع تجربة الساتوري، وهي تحرير الأنا من خلال الذات، والتي تضاف إليها "طبيعة بوذا"، أو العالمية الإلهية. وبما أنني، انطلاقاً من التواضع العلمي، لا أدعي هنا أنني أدلي بأي تصريح ميتافيزيقي، بل أقصد تغييراً في الوعي يمكن تجربته، فإنني أتعامل مع الساتوري أولاً وقبل كل شيء على أنه مشكلة نفسية. بالنسبة لأي شخص لا يشارك أو يفهم وجهة النظر هذه، فإن "التفسير" لن يكون سوى كلمات ليس لها معنى ملموس بالنسبة له. وبالتالي فهو غير قادر على جعل هذه التجريدات جسراً إلى الحقائق ذات الصلة؛ بعبارة أخرى، لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن لعطر الغار المزهر (ص 60-1) أو الأنف المعدل (ص 57) أن يؤثر على مثل هذا التغيير الكبير في الوعي. إن أبسط شيء سيكون بالطبع هو تصنيف كل هذه الحكايات ضمن عالم القصص الخيالية المسلية، أو على الأقل، إذا قبل المرء الحقائق كما هي، التخلص منها باعتبارها أمثلة على خداع الذات. (يمكن للمرء أيضًا أن يستخدم هنا عن طيب خاطر مصطلح "الإيحاء الذاتي"، ذلك الفيل الأبيض البائس من مخزن أوجه القصور الروحية!) لا يمكن لفحص جاد ومسؤول للظواهر الغريبة أن يتجاهل هذه الحقائق بسهولة. بالطبع لا يمكننا أن نقرر بشكل قاطع ما إذا كان الشخص "مستنيرًا" أو "مخلصًا" حقًا، أو ما إذا كان يتخيل ذلك فحسب. ليس لدينا معايير لذلك. علاوة على ذلك، نعلم جيداً أن الألم الوهمي غالباً ما يكون أكثر إيلاماً بكثير من الألم الحقيقي المزعوم، لأنه مصحوب بمعاناة أخلاقية خفية ناتجة عن الشعور الكئيب بالاتهام الذاتي السري. لذلك، لا يتعلق الأمر بـ "الحقيقة الفعلية" بل بالواقع الروحي؛ أي حدوث الظاهرة النفسية المعروفة باسم الساتوري.

كل حدث روحي هو صورة وخيال؛ وإلا لما كان هناك وعي ولا ظاهرة للحدث. إن الخيال نفسه هو ظاهرة نفسية، وبالتالي فإن ما إذا كان "التنوير" يسمى "حقيقي" أو "خيالي" فهو أمر غير ذي صلة تمامًا. إن الرجل الذي يمتلك التنوير، أو يدعي أنه يمتلكه، يعتقد على أي حال أنه متنور. إن ما يفكر فيه الآخرون لا يمكن أن يحدد أي شيء بالنسبة له فيما يتعلق بتجربته. حتى لو كذب، فإن كذبته ستكون حقيقة روحية. نعم، حتى لو كانت جميع التقارير الدينية مجرد اختراعات وتزييفات واعية، فإنه لا يزال من الممكن كتابة أطروحة نفسية مثيرة للاهتمام حول حقيقة هذه الأكاذيب، بنفس المعالجة العلمية التي يتم بها عرض علم الأمراض النفسية للأوهام. إن حقيقة وجود حركة دينية عمل عليها العديد من العقول اللامعة على مدى قرون عديدة هي سبب كافٍ للمغامرة على الأقل بمحاولة جادة لوضع مثل هذه الأحداث في نطاق الفهم العلمي.

في وقت سابق، أثرت مسألة ما إذا كان لدينا شيء يشبه الساتوري في الغرب. إذا استثنينا أقوال المتصوفين الغربيين، فإن نظرة سطحية تكشف عن لا شيء يمكن تشبيهه بها ولو بأدنى درجة. بحسب تفكيرنا، فإن احتمال وجود خطوات في تطور الوعي غير موجودة. إن مجرد التفكير في وجود فرق نفسي هائل بين الوعي بوجود شيء ما و"وعي الوعي" بشيء ما يقترب من دقة يصعب الإجابة عليها. يكاد المرء لا يستطيع أن يأخذ مثل هذه المشكلة على محمل الجد لدرجة أن يأخذ في الاعتبار الظروف النفسية المحيطة بظهورها. ومن السمات المميزة أن طرح مثل هذه الأسئلة وما شابهها لا ينشأ في الغالب من أي حاجة فكرية، ولكن عندما يوجد يكون متجذرًا دائمًا تقريبًا في ممارسة دينية بدائية. في الهند كانت اليوغا وفي الصين كانت البوذية هي التي وفرت القوة الدافعة لهذه المحاولات لانتزاع الذات من قيود حالة معينة من الوعي التي كان يُعتقد أنها غير مكتملة. أما فيما يتعلق بالتصوف الغربي، فإن نصوصه مليئة بالتعليمات حول كيفية تمكن الإنسان من تحرير نفسه من "الأنا" *(Ichhaftigkeit)* في وعيه، بحيث يستطيع من خلال معرفة وجوده أن يرتقي بنفسه فوقها ويصل إلى الإنسان الداخلي (الإلهي). يستخدم رويسبروك صورة معروفة أيضًا للفلاسفة الهنود، وهي الشجرة التي جذورها في الأعلى وقمتها في الأسفل، [17] "ويجب عليه أن يصعد إلى شجرة الإيمان، التي تنمو إلى الأسفل، لأن جذورها في الألوهية". [18] ويقول رويسبروك أيضاً، مثل اليوغا، "يجب أن يكون الإنسان حراً وبدون صور، متحرراً من كل التعلقات وخالياً من كل المخلوقات". [19] "يجب ألا تمسه الشهوة والمعاناة، الربح والخسارة، الصعود والهبوط، الاهتمام بالآخرين، المتعة والخوف، ولا ينبغي له أن يتعلق بأي مخلوق." [20] في هذا يكمن "وحدة" الوجود، وهذا يعني "التوجه نحو الداخل". وهذا يعني "أن يتجه الإنسان إلى داخله، إلى قلبه، حتى يتمكن بذلك من الشعور وفهم العمل الداخلي والكلمات الداخلية لله". [21] تتميز هذه الحالة الجديدة من الوعي، الناشئة عن الممارسة الدينية، بحقيقة أن الأشياء الخارجية لم تعد تؤثر على وعي يشبه الأنا، والذي نشأ عنه ارتباط متبادل، ولكن الوعي الفارغ يكون مفتوحًا لتأثير آخر. لن يُشعر بهذا التأثير "الآخر" بعد الآن كنشاط ذاتي، بل كعملٍ لشيءٍ غير الأنا الذي يتخذ الوعي موضوعًا له. [22] يبدو الأمر كما لو أن طبيعة الأنا الذاتية قد طغت عليها ذاتٌ أخرى، أو استولت عليها، لتحل محل الأنا. [23] إنها مسألة تلك التجربة الدينية المعروفة التي صاغها القديس بولس (غلاطية 2: 20). هنا يتم وصف حالة جديدة من الوعي بلا شك، منفصلة عن حالة الوعي السابقة من خلال عملية تحول ديني بعيدة المدى.

يمكن الاعتراض بأن الوعي في حد ذاته لم يتغير، ولكن فقط وعي شيء ما، تمامًا كما لو أن المرء قلب صفحة كتاب ورأى الآن صورة مختلفة بنفس العينين. أخشى أن هذا التصور ليس أكثر من تفسير تعسفي، لأنه لا يتوافق مع الحقائق. والحقيقة هي أن النص لا يصف مجرد صورة أو شيء مختلف، بل يصف تجربة تحول، غالباً ما تنتج عن تشنجات عنيفة للغاية. إن محو صورة واستبدالها بأخرى هو أمر شائع للغاية ولا يحمل أيًا من سمات تجربة التحول. ليس الأمر أن شيئاً مختلفاً يُرى، بل أن المرء يرى بشكل مختلف. يبدو الأمر كما لو أن الفعل المكاني للرؤية قد تغير ببعد جديد. عندما يسأل المعلم: "هل تسمع خرير الجدول؟" من الواضح أنه يعني شيئًا مختلفًا تمامًا عن "السمع" العادي. [24] الوعي يشبه الإدراك، ومثلما يخضع الإدراك لشروط وحدود، كذلك الوعي. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء أن يكون واعياً في مراحل مختلفة، في نطاق أضيق أو أوسع، بشكل سطحي أو عميق. إلا أن هذه الاختلافات في الدرجة غالباً ما تكون اختلافات في الشخصية، لأنها تعتمد كلياً على تطور الشخصية - أي على طبيعة الموضوع المدرك.

لا يهتم العقل بحالة الذات المدركة، طالما أن الأخيرة تفكر منطقياً فقط. إن العقل منشغل بالضرورة بهضم محتويات الوعي، وبأساليب الهضم. يتطلب الأمر شغفاً فلسفياً لإجبار المحاولة على التغلب على العقل والمضي قدماً نحو إدراك المدرك. إلا أن هذا الشغف لا يمكن تمييزه عملياً عن القوة الدافعة الدينية، وبالتالي فإن هذه المشكلة برمتها تنتمي إلى عملية التحول الديني، التي لا يمكن مقارنتها بالعقل. لا شك أن الفلسفة القديمة تخدم إلى حد كبير عملية التحول، وهو ما يمكن قوله بشكل أقل فأقل عن الفلسفة الجديدة. شوبنهاور يُعتبر ضمنيًا من الطراز القديم. لكن كتاب زرادشت لنيتشه ليس فلسفة بل عملية تحول دراماتيكية ابتلعت العقل تماماً. لم يعد الأمر مسألة فكر، بل هو في أسمى معاني مفكر الفكر - وهذا موجود في كل صفحة من صفحات الكتاب. سيظهر رجل جديد، رجل متحول تماماً، على الساحة، رجل حطم قشرة الرجل القديم، وهو لا ينظر فقط إلى سماء جديدة وأرض جديدة، بل قام بخلقهما. وقد عبّر أنجيلوس سيليسيوس عن ذلك بتواضع أكبر من زرادشت:

Mein Leib ist ein Schal, in dem ein Küchelein
.Vom Geist der Ewigkeit will ausgebrütet sein
*(*جسدي عبارة عن قشرة، ستفقس فيها دجاجة
من روح الأبدية*.)*

يقابل مفهوم *"*الساتوري*"* في سياق المسيحية تجربة التحول الديني. ومع ذلك، ونظرًا لوجود درجات وأنواع مختلفة من هذه التجربة، فلن يكون من غير الضروري تحديد تلك الفئة التي تتوافق بشكل أوثق مع تجربة الزن. هذه بلا شك هي التجربة الصوفية، والتي تتميز عن التجارب المماثلة في أن تحضيرها يتكون من "ترك الذات تذهب" *(sich lassen)*، و"إفراغ الصور" وأشياء أخرى من هذا القبيل؛ وهذا على النقيض من التجارب الدينية التي، مثل تمارين القديس إغناطيوس، تستند إلى ممارسة وتصور الصور المقدسة. أود أن أدرج في هذه الفئة الأخيرة التحول من خلال الإيمان والصلاة، ومن خلال التجربة الجماعية في البروتستانتية، حيث يلعب افتراض محدد للغاية الدور الحاسم في هذا، وليس بأي حال من الأحوال "الفراغ" أو "التحرر". إن العبارة التي تميز الحالة الأخيرة، "الله لا شيء"، ستكون غير متوافقة من حيث المبدأ مع التأمل في العاطفة، ومع الإيمان والتوقع الجماعي.

وهكذا فإن تشبيه الساتوري بالتجربة الغربية يقتصر على أولئك المتصوفين المسيحيين القلائل الذين تتجنب أقوالهم، من أجل المفارقة، حدود الهرطقة أو تجاوزتها بالفعل. لقد كانت هذه الصفة تحديداً هي التي جلبت على مايستر إيكهارت إدانة الكنيسة. لو كانت البوذية "كنيسة" بالمعنى الذي نفهمه للكلمة، لكانت حركة الزن بالتأكيد عبئاً لا يطاق بالنسبة لها. ويعود السبب في ذلك إلى الشكل الفردي للغاية للأساليب،[25] فضلاً عن الموقف المناهض للأيقونات لدى العديد من المعلمين.[26] وبقدر ما تكون الزن حركة، فقد تشكلت أشكال جماعية على مر القرون، كما يتضح من أعمال سوزوكي حول تدريب راهب الزن البوذي،[27] ولكنها من حيث الشكل والمضمون تتعلق بالمظاهر الخارجية فقط. وبغض النظر عن نوع العادات، يبدو أن طريقة التدريب الروحي أو التكوين تتكون من أساليب الكوآن. يُفهم من كلمة *"*كوآن*"* سؤال أو تعبير أو فعل متناقض من جانب المعلم. بحسب وصف سوزوكي، يبدو أن الأمر يتعلق بشكل أساسي بأسئلة رئيسية يتم تناقلها على شكل حكايات. يقدم المعلم هذه الأوراق للطالب للتأمل. ومن الأمثلة الكلاسيكية على ذلك حكاية وو أو مو. سأل راهبٌ المعلم ذات مرة: "هل للكلب طبيعة بوذية أيضاً؟"، فأجاب المعلم: "وو". وكما لاحظ سوزوكي، فإن كلمة "وو" تعني ببساطة "وو"، وهو ما كان سيقوله الكلب نفسه رداً على السؤال.

للوهلة الأولى، يبدو أن طرح مثل هذا السؤال كغذاء للتأمل يعني توقع أو تحيز النتيجة النهائية، وأن محتوى التأمل سيتم تحديده من خلال ذلك، على غرار تمارين اليسوعيين، أو بعض تأملات اليوغيين، والتي يتم تحديد جوهرها من خلال مهمة يقدمها المعلم. إلا أن الألغاز الكوآن تتسم بتنوع كبير، وغموض شديد، وفوق كل ذلك بتناقض هائل، لدرجة أن الخبير نفسه يجهل تماماً ما قد يظهر كحل مناسب. علاوة على ذلك، فإن أوصاف التجارب غامضة لدرجة أنه لا يمكن في أي حالة واحدة إدراك أي صلة عقلانية لا جدال فيها بين الكوآن والتجربة. بما أنه لا يمكن إثبات أي تسلسل منطقي على الإطلاق، فمن المفترض أن طريقة الكوآن لا تفرض أدنى قيد على حرية الأحداث الروحية، وأن النتيجة النهائية بالتالي لا تأتي إلا من الاستعداد الفردي للمتأهل. إن التدمير الكامل للعقلانية الذي يهدف إليه التدريب يخلق غياباً شبه تام لافتراضات الوعي. وبالتالي يتم استبعاد الافتراض الواعي قدر الإمكان، ولكن ليس الافتراض اللاواعي؛ أي الاستعداد النفسي الموجود ولكن غير المدرك، والذي هو أي شيء إلا الفراغ وانعدام الافتراض. إنه عامل فطري، وعندما يجيب - كما هو واضح في تجربة الساتوري - يكون جوابًا من الطبيعة، التي نجحت في إيصال ردود أفعالها مباشرة إلى الوعي.[28] ما تعارضه طبيعة الطالب اللاواعية مع المعلم أو مع الكوآن كإجابة هو بوضوح الساتوري. هذا، على الأقل، يبدو لي أنه الرأي الذي، بكل المقاييس، من شأنه أن يعبر عن جوهر الساتوري بشكل صحيح إلى حد ما. ويدعم هذا الرأي أيضاً حقيقة أن "نظرة خاطفة إلى طبيعة المرء"، و"الإنسان الأصلي"، وعمق الوجود، غالباً ما تكون مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة لمعلم الزن.[29]

يختلف الزن عن جميع ممارسات التأمل الفلسفية والدينية الأخرى في مبدأ عدم الافتراض *(Voraus-setzung)*. يتم رفض بوذا نفسه بشدة؛ بل يتم تجاهله بشكل شبه تجديفي، على الرغم من أنه - أو ربما لمجرد ذلك - قد يكون أقوى افتراض روحي على الإطلاق. لكنه هو أيضاً مجرد صورة، ولذلك يجب تنحيته جانباً. لا يجب أن يكون هناك شيء حاضر إلا ما هو موجود بالفعل؛ أي الإنسان مع افتراضه الكامل واللاواعي، والذي، لمجرد أنه لا واعٍ، لا يمكنه التخلص منه أبداً. إن الإجابة التي تبدو وكأنها تأتي من العدم، والنور الذي ينبثق من أحلك الظلام، لطالما كانت هذه تجارب إضاءة رائعة ومباركة.

إن عالم الوعي هو حتما عالم مليء بالقيود، وجدران تسد الطريق. إنها بالضرورة أحادية الجانب دائماً، نتيجة لجوهر الوعي. لا يمكن لأي وعي أن يستوعب أكثر من عدد قليل جداً من المفاهيم المتزامنة. يجب أن يبقى كل شيء آخر في الظل، بعيدًا عن الأنظار. إن زيادة المحتوى المتزامن تؤدي على الفور إلى خفوت الوعي؛ بل إلى ارتباك يصل إلى حد فقدان التوجه. إن الوعي لا يطالب فحسب، بل هو في جوهره قيد صارم على القليل وبالتالي على المتميزين. أما بالنسبة لتوجيهنا العام، فنحن مدينون ببساطة وحصراً لحقيقة أننا من خلال الانتباه قادرون على إحداث تتابع سريع نسبياً للصور. لكن الانتباه هو جهد لا نستطيع القيام به بشكل دائم. لذلك علينا أن نكتفي، إذا جاز التعبير، بالحد الأدنى من الإدراكات المتزامنة وتتابع الصور. وبالتالي يتم استبعاد مجالات واسعة من الإدراكات الممكنة بشكل دائم، ويظل الوعي مرتبطًا دائمًا بأضيق دائرة. إن ما سيحدث إذا نجح وعي فردي في استيعاب صورة متزامنة لكل ما يمكن أن يتخيله بنظرة واحدة هو أمر يفوق التصور. إذا كان الإنسان قد نجح بالفعل في بناء هيكل العالم من الأشياء القليلة الواضحة التي يمكنه إدراكها في وقت واحد، فما هو المشهد الإلهي الذي سيظهر أمام عينيه لو كان قادراً على إدراك الكثير دفعة واحدة وبشكل واضح؟ هذا السؤال يتعلق فقط بالتصورات الممكنة بالنسبة لنا. لكن إذا أضفنا إلى ذلك المحتويات اللاواعية - أي المحتويات التي لم تعد قادرة على الوعي - ثم حاولنا تخيل مشهد كامل، فإن هذا يتجاوز أكثر الخيالات جرأة. إن هذا الأمر الذي لا يمكن تصوره هو بالطبع أمر مستحيل تمامًا في الشكل الواعي، ولكنه في شكل اللاوعي هو حقيقة واقعة، حيث أن كل ما يغلي في الأسفل هو إمكانية دائمة للتصور. اللاوعي هو اكتمال لا يمكن إدراكه لجميع العوامل النفسية الخفية، وهو "عرض كامل" للطبيعة الكامنة. إنها تشكل التكوين الكامل الذي يأخذ منه الوعي أجزاءً من وقت لآخر. أما إذا تم إفراغ الوعي قدر الإمكان من محتوياته، فسوف يقع الأخير في حالة (على الأقل حالة عابرة) من اللاوعي. تحدث هذه الإزاحة كقاعدة عامة في الزن من خلال حقيقة سحب طاقة الوعي من المحتويات ونقلها إما إلى مفهوم الفراغ أو إلى الكوآن. وبما أن العنصرين الأخيرين يجب أن يكونا مستقرين، فإن تتابع الصور يتم إلغاؤه أيضاً، ومعه الطاقة التي تحافظ على حركية الوعي. تنتقل كمية الطاقة التي يتم توفيرها إلى اللاوعي، وتعزز إمداده الطبيعي حتى حد أقصى معين. وهذا يزيد من استعداد محتويات اللاوعي للظهور في الوعي. بما أن إفراغ وإغلاق الوعي ليس بالأمر السهل، فإن التدريب الخاص وفترة زمنية[30]طويلة غير محددة ضرورية لإنتاج أقصى قدر من التوتر الذي يؤدي إلى الاختراق النهائي لمحتويات اللاوعي إلى الوعي.

إن المحتويات التي تظهر بوضوح ليست غير محددة تماماً بأي حال من الأحوال. كما تُظهر التجربة النفسية مع الجنون، توجد علاقات غريبة بين محتويات الوعي والأوهام والهذيان التي تقتحمه. إنها نفس العلاقات الموجودة بين الأحلام والوعي العامل لدى الرجال العاديين. إن العلاقة[32] في جوهرها علاقة تعويضية [31] : فمحتويات اللاوعي تظهر على السطح كل ما هو ضروري [33] بأوسع معانيه لإكمال، أي اكتمال التوجه الواعي. إذا تم دمج الأجزاء التي يقدمها اللاوعي أو التي يتم فرضها منه بنجاح في حياة الوعي، فإن ذلك يؤدي إلى شكل من أشكال الوجود النفسي يتوافق بشكل أفضل مع شخصية الفرد ككل، وبالتالي يقضي على الصراع غير المجدي بين الشخصية الواعية واللاواعية. يعتمد العلاج النفسي الحديث على هذا المبدأ، بقدر ما استطاع أن يتخلص من التحيز التاريخي القائل بأن اللاوعي لا يحتوي إلا على محتويات طفولية ودونية أخلاقياً. هناك بالتأكيد ركن أدنى، غرفة مليئة بالأسرار القذرة، والتي مع ذلك ليست غير واعية بقدر ما هي مخفية ومنسية جزئياً فقط. لكن هذا لا علاقة له باللاوعي ككل، تماماً كما لا علاقة للسن المجوف بالشخصية الكاملة. إن اللاوعي هو أساس كل التأكيدات الميتافيزيقية، وكل الأساطير، وكل الفلسفة (بقدر ما لا تكون مجرد فلسفة نقدية) وجميع أشكال الحياة التي تستند إلى افتراضات نفسية.

كل غزو للاوعي هو إجابة لحالة معينة من الوعي، وهذه الإجابة تتبع من مجمل الاحتمالات الفكرية الموجودة؛ أي من الاستعداد الكامل الذي، كما هو موضح أعلاه، هو صورة متزامنة في الإمكانات للوجود النفسي. إن الانقسام إلى العنصر الواحد، والجانب الواحد، والطابع المجزأ يناسب جوهر الوعي. إن رد الفعل الناجم عن الاستعداد يتسم دائماً بطابع الكمال، لأنه يتوافق مع طبيعة لم

يتم تقسيمها بواسطة أي وعي تمييزي.[34] ومن هنا يأتي تأثيره الطاغي. إنها الإجابة غير المتوقعة والشاملة والمنيرة تمامًا، والتي تعمل بشكل أكبر كإضاءة وكشف، لأن الوعي قد حشر نفسه في طريق مسدود ميؤوس منه.[35]

لذلك، عندما يتلقى طالب الزن، بعد سنوات عديدة من أصعب الممارسات وأشد أنواع تدمير الفهم العقلاني، إجابة - الإجابة الحقيقية الوحيدة - من الطبيعة نفسها، يمكن فهم كل ما يقال عن الساتوري . كما يمكن رؤيته بسهولة، فإن الطبيعة *(Naturhaftigkeit)* للإجابة هي التي تبرز من معظم حكايات الزن. نعم، يمكن للمرء أن يتقبل برضا تام الطالب المستنير الذي، كما تروي إحدى القصص، تمنى لمعلمه جلدًا مبرحًا كمكافأة (انظر الصفحات 63-4). كم من الحكمة تكمن في كلمة "وو" التي يقولها المعلم، وهي الإجابة على السؤال المتعلق بطبيعة بوذا الكلب! ومع ذلك، يجب على المرء أن يضع في اعتباره دائماً أنه من ناحية، هناك عدد كبير من الناس الذين لا يستطيعون التمييز بين الفكاهة الروحية والهراء، ومن ناحية أخرى، هناك عدد كبير جداً من الناس الذين يقتنعون بذكائهم لدرجة أنهم لم يقابلوا في حياتهم سوى الحمقى.

على الرغم من القيمة العظيمة للبوذية الزن في فهم عملية التحول الديني، إلا أن استخدامها بين الغربيين أمر غير محتمل للغاية. تفتقر الغرب إلى المفاهيم الروحية اللازمة للزن. من منا سيضع مثل هذه الثقة الضمنية في سيد متفوق وطرقه التي يصعب فهمها؟ لا يوجد هذا الاحترام للشخصية الإنسانية الأسمى إلا في الشرق. من يستطيع أن يتباهى بالإيمان بإمكانية حدوث تجربة تحول متناقضة إلى حد لا يوصف؛ لدرجة التضحية بسنوات عديدة من حياته في السعي المرهق وراء مثل هذا الهدف؟ وأخيراً، من يجرؤ على أن يتولى سلطة تجربة تحول غير تقليدية؟ فليكن رجلاً قليل الثقة، رجلاً ربما لأسباب مرضية، لديه الكثير ليقوله عن نفسه؛ مثل هذا الرجل لن يكون لديه سبب للشكوى من أي نقص في التأييد بيننا. لكن إذا وضع "المعلم" مهمة صعبة تتطلب أكثر من مجرد كلام ببغائي، يبدأ الأوروبي في الشك، لأن الطريق الوعر للتطور الذاتي يبدو له كئيباً ومظلماً كالجحيم.

لا شك لدي في أن تجربة الساتوري تحدث أيضاً في الغرب، لأن لدينا أيضاً رجالاً يستشعرون الغايات النهائية ولن يدخروا جهداً في الاقتراب منها. لكنهم سيلتزمون الصمت، ليس فقط بدافع الخجل، بل لأنهم يعلمون أن أي محاولة لنقل تجاربهم إلى الآخرين ستكون ميؤوس منها. لأنه لا يوجد في ثقافتنا ما يقترب من هذه التطلعات، ولا حتى الكنيسة، وهي الجهة المسؤولة عن السلع الدينية. في الواقع، وظيفتها هي معارضة كل هذه التجارب المتطرفة، لأنها لا يمكن أن تكون إلا تجارب غير تقليدية. إن الحركة الوحيدة داخل ثقافتنا التي لديها جزئياً، وينبغي أن يكون لديها جزئياً، فهم لهذه التطلعات هي العلاج النفسي. لذلك، ليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه المقدمة مكتوبة من قبل معالج نفسي.

بشكل أساسي، العلاج النفسي هو علاقة جدلية بين الطبيب والمريض. إنها مناقشة بين كيانين روحيين، حيث كل الحكمة ليست سوى أداة. الهدف هو التحول؛ ليس تغييراً محدداً مسبقاً، بل تغييراً لا يمكن تحديده، ومعياره الوحيد هو اختفاء الذات. لم يبذل الطبيب أي جهد لإجبار المريض على خوض هذه التجربة. أقصى ما يمكنه فعله هو تسهيل طريق المريض نحو تحقيق موقف من شأنه أن يقاوم التجربة الحاسمة بأقل قدر من المقاومة. إذا كانت المعرفة تلعب دوراً هاماً في إجراءاتنا الغربية، فإن هذا يعادل أهمية الجو الروحي التقليدي للبوذية في الزن. لا يمكن أن يوجد الزن وتقنيته إلا على أساس الثقافة الروحية البوذية، وهذه هي فرضيته. لا يمكنك تدمير عقلانية لم تكن موجودة أصلاً. إنّ إتقان الزن ليس نتيجة للجهل وانعدام الثقافة. لذا، حتى بيننا يحدث في كثير من الأحيان أن يتم إنتاج الأنا الواعية والفهم الواعي والمتطور أولاً عن طريق العلاج قبل أن يفكر المرء حتى في إلغاء الأنانية أو العقلانية. علاوة على ذلك، فإن العلاج النفسي لا يتعامل بأي حال من الأحوال مع الرجال الذين، مثل رهبان الزن، مستعدون لتقديم أي تضحية من أجل الحقيقة، ولكنه في كثير من الأحيان يتعامل مع أكثر الأوروبيين عناداً. وبالتالي فإن مهام العلاج النفسي أكثر تنوعاً بكثير، وتواجه المراحل الفردية للعملية الطويلة معارضة أكبر بكثير مما هو عليه الحال في الزن.

لهذه الأسباب وغيرها الكثير، فإن نقل فلسفة الزن مباشرة إلى الظروف الغربية ليس أمراً محموداً ولا حتى ممكناً. لكن المعالج النفسي، الذي يهتم بجدية بمسألة أهداف علاجه، لا يمكن أن يبقى غير متأثر عندما يرى النتيجة النهائية التي تسعى إليها طريقة شرقية للشفاء الروحي - أي "الشفاء التام". من الحقائق المعروفة أن هذه المشكلة شغلت بجدية أكثر العقول جرأة في الشرق لأكثر من ألفي عام، وأنه في هذا الصدد تم تطوير أساليب ومذاهب فلسفية تجعل جميع المحاولات الغربية في نفس الاتجاه تبدو باهتة. لقد توقفت جميع محاولاتنا - باستثناءات قليلة - إما عند السحر (الطوائف الغامضة، والتي يجب أن تُحسب المسيحية من بينها) أو

عند الفكر (الفلاسفة من فيثاغورس إلى شوبنهاور). إن المآسي الروحية في فاوست لغوته وزرادشت لنيتشه هي وحدها التي تُشير إلى أولى بوادر انبثاق تجربة شاملة (Ganz-heitserlebnis) في نصف الكرة الغربي.[36] وحتى اليوم، لا نعرف ما قد تُشير إليه هذه الأعمال، التي تُعدّ من أكثر نتاجات العقل الأوروبي وعدًا، في نهاية المطاف، إذ إنها مُغطاة بكل مادية ووضوح روحنا اليونانية المُتشكّلة مُسبقًا.[37] مع أن عقولنا قد أوصلت إلى حدّ الكمال تقريبًا قدرة الطائر الجارح على رصد أصغر فأر من أعلى ارتفاع، إلا أن جاذبية الأرض تُسيطر عليه، وتُوقعه السانغسكارا في عالم من الصور المُربكة إن لم يعد يبحث عن غنيمة، بل وجّه على الأقل عينًا واحدة إلى الداخل ليجد من يبحث. نعم، إنه يقع في مخاض ولادة شيطانية، محاطًا بأهوال وأخطار مجهولة، ومهددًا بسراب خادع ومتاهات معقدة. أسوأ المصائر تهدد المغامر؛ الوحدة الصامتة والهاوية في الزمن الذي يسميه زمنه الخاص. من يعرف أي شيء عن الدوافع العميقة وراء "التحفة الفنية"، كما وصفها غوته بـ فاوست، أو عن ارتعاشات "تجربة ديونيسوس"؟ يجب على المرء أن يقرأ كتاب باردو ثودول، كتاب الموتى التبتي، بالعكس، كما اقترحت،[38] من أجل إيجاد نظير شرقي للعذابات والكوارث التي تنطوي عليها "طريقة التحرر" الغربية للوصول إلى الكمال. هذا هو المهم - وليس النوايا الحسنة، أو التقليد الذكي، أو حتى الألعاب البهلوانية الفكرية. يظهر هذا، في شكل تلميحات أو في أجزاء أكبر أو أصغر، أمام المعالج النفسي الذي تحرر من الآراء العقائدية المتسرعة وقصيرة النظر. إذا كان أسيراً لعقيدته شبه البيولوجية، فسيحاول دائماً اختزال ما يلاحظه إلى المألوف المبتذل، وإخضاعه بذلك لمعيار عقلاني لا يكفي إلا لمن يرضى بالأوهام. لكن الوهم الأكبر على الإطلاق هو أن شيئاً ما يمكن أن يكفي شخصاً ما. إن هذا الوهم يقف وراء كل ما لا يطاق وأمام كل تقدم، وهو من أصعب الأشياء التي يمكن التغلب عليها. إذا وجد المعالج النفسي وقتاً من أنشطته المفيدة للتأمل قليلاً، أو إذا اضطر بالصدفة إلى رؤية ما وراء أوهامه، فقد يدرك كم هي جوفاء ومسطحة، بل ومتناقضة مع الحياة، كل الاختزالات العقلانية عندما تصطدم بشيء حي، وهذا ما سيتطور. إذا تابع هذا الأمر، فسيدرك سريعاً ما يعنيه "فتح تلك الأبواب التي يتسلل الجميع من أمامها بكل سرور".

لا أريد بأي حال من الأحوال أن يُفهم من كلامي أعلاه أنني أقدم أي توصية أو نصيحة. لكن عندما يبدأ الرجال الغربيون بالحديث عن الزن، أعتبر من واجبي أن أُظهر للأوروبي أين يكمن مدخلنا إلى "أطول الطرق" التي تؤدي إلى الساتوري ، وما هي الصعوبات التي تعترض هذا الطريق، والذي لم يسلكه سوى عدد قليل من رجالنا العظماء - ربما كمنارة على جبل عالٍ، تضيء في المستقبل الضبابي. سيكون من الخطأ غير الصحي افتراض أن الساتوري أو السامادهي يمكن الوصول إليهما في أي مكان أدنى من تلك المستويات. للحصول على تجربة متكاملة، لا يوجد شيء أرخص أو أصغر من الكل. يمكن فهم الأهمية النفسية لهذا الأمر من خلال النظر ببساطة في حقيقة أن الوعي ليس سوى جزء من الروحي، وبالتالي فهو غير قادر على الكمال الروحي: لذلك هناك حاجة إلى التوسع غير المحدد للاوعي. أما الأخير، فلا يمكن التقاطه بصيغ بارعة ولا طرده عن طريق العقائد العلمية، لأن هناك شيئًا من القدر متشبثًا به - نعم، إنه في بعض الأحيان القدر نفسه، كما يوضح فاوست وزرادشت بوضوح شديد. إن تحقيق الكمال يستلزم استخدام الكل. لا شيء أقل من ذلك سيفي بالغرض؛ وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك شروط أسهل، ولا بديل، ولا حل وسط. وبما أن كلاً من فاوست وزرادشت، على الرغم من التقدير الكبير لهما، لا يمثلان سوى حدود ما يمكن فهمه بالنسبة للأوروبي، فإنه من الصعب توقع أن يتمكن جمهور مثقف بدأ للتو في سماع العالم الغامض للروح من تكوين أي تصور كافٍ عن الحالة الروحية لرجل وقع في حيرة عملية التفرّد، والتي أطلقت عليها مصطلح "التحول إلى الكمال" *(Ganz-werdung)*. يستحضر الناس مفردات علم الأمراض، ويعزون أنفسهم بمصطلحات "العصاب" و"الذهان"، ويتحدثون همساً عن "الغموض الإبداعي" - ولكن ماذا يمكن لرجل ربما ليس شاعراً أن يخلق؟ وقد تسبب سوء الفهم المذكور في العصر الحديث في أن يطلق عدد ليس بقليل من الناس على أنفسهم لقب "فنانين" من تلقاء أنفسهم. وكأن "الفن" لا علاقة له إطلاقاً بـ "القدرة"! إذا لم يكن لديك ما "تخلقه"، فربما يمكنك أن تخلق نفسك.

يُظهر الزن مدى أهمية "الوصول إلى الكمال" في الشرق. ربما يؤدي الانشغال بألغاز الزن إلى تقوية شوكة الأوروبي ضعيف القلب، أو توفير نظارة لقصر نظره، بحيث يتمكن من خلال "ثقبه الكئيب في الجدار" من الاستمتاع على الأقل بنظرة خاطفة على عالم التجربة الروحية، الذي كان حتى الآن محجوبًا بالضباب. من المؤكد أن الأمر لن ينتهي بشكل سيئ، لأن أولئك الذين يشعرون بالرعب سيتم حمايتهم بشكل فعال من المزيد من الفساد، وكذلك من كل شيء ذي أهمية، من خلال فكرة "الإيحاء الذاتي" المفيدة (انظر الصفحة 63). مع ذلك، أود أن أحذر القارئ المتيقظ والمتعاطف من الاستهانة بالعمق الروحي للشرق، أو

افتراض أي نوع من الابتذال في الزن.[39] إن الموقف المتأصل من التصديق الحرفي تجاه الكنز الفكري الشرقي هو في هذه الحالة خطر أقل، حيث لا توجد في الزن لحسن الحظ أي من تلك الكلمات المبهمة بشكل عجيب، كما هو الحال في الطوائف الهندية. كما أن الزن لا يتلاعب بتقنيات هاثا يوغا المعقدة، [40]التي تخدع الأوروبي المفكر فيزيولوجيًا بالأمل الزائف في إمكانية الحصول على الروح من خلال الجلوس والتنفس. على العكس من ذلك، يتطلب الزن الذكاء وقوة الإرادة، كما هو الحال مع كل الأشياء العظيمة التي ترغب في أن تصبح حقيقية.

مقدمة في بوذية الزن

1
تمهيد

لقد أكملت البوذية في مسار تطورها شكلاً يميزها عن ما يسمى بنوعها البدائي أو الأصلي - إلى حد كبير، في الواقع، لدرجة أننا مبررون في التأكيد على تقسيمها التاريخي إلى مدرستين، هينايانا وماهايانا، أو المركبة الصغرى والمركبة الكبرى للخلاص. في الواقع، فإن الماهايانا، بكل صيغها المتنوعة، ليست أكثر من شكل متطور من البوذية، وتعود سلطتها النهائية إلى مؤسسها الهندي، بوذا شاكياموني العظيم. عندما تم إدخال هذا الشكل المتطور من الماهايانا إلى الصين ثم إلى اليابان، حقق مزيدًا من التطور في هذه البلدان. لا شك أن هذا الإنجاز يعود إلى القادة البوذيين الصينيين واليابانيين، الذين عرفوا كيفية تطبيق مبادئ عقيدتهم على الظروف المتغيرة باستمرار للحياة وعلى الاحتياجات الدينية للشعب. وقد أدى هذا التوسع والتعديل من جانبهم إلى زيادة الفجوة التي كانت موجودة بالفعل بين الماهايانا[1]ونوعها الأكثر بدائية. في الوقت الحاضر، يمكن القول إن شكل الماهايانا لا يُظهر، ظاهريًا على الأقل، تلك السمات الأكثر وضوحًا التي تميز البوذية الأصلية.

ولهذا السبب هناك من يصرح بأن هذا الفرع من البوذية ليس في الواقع بوذية بالمعنى المتعارف عليه للبوذية. لكن حجتي هي كالتالي: أي شيء فيه حياة هو كائن حي، ومن طبيعة الكائن الحي أنه لا يبقى أبداً في نفس حالة الوجود. تختلف ثمرة البلوط تماماً، تماماً كما تختلف شجرة البلوط الصغيرة ذات الأوراق الرقيقة التي خرجت لتوها من قشرتها الواقية تماماً عن الشجرة كاملة النمو المهيبة والضخمة التي ترتفع إلى السماء. لكن خلال هذه المراحل المتفاوتة من التغيير، هناك استمرار للنمو وعلامات هوية لا لبس فيها، ومن ثم نعلم أن نفس النبتة قد مرت بالعديد من مراحل التكوين. إن ما يسمى بالبوذية البدائية هي البذرة؛ ومنها نشأت البوذية في الشرق الأقصى مع وعد بمزيد من النمو. قد يتحدث العلماء عن البوذية التاريخية، لكن موضوعي هنا هو رؤية البوذية ليس فقط في تطورها التاريخي ولكن من وجهة نظر كونها لا تزال تهمنا بشكل حيوي كقوة روحية متسارعة في الشرق الأقصى.

من بين العديد من طوائف البوذية التي نشأت، وخاصة في الصين واليابان، نجد نظامًا فريدًا يدعي نقل جوهر وروح البوذية مباشرة من مؤلفها، وليس من خلال أي وثيقة سرية أو عن طريق أي طقوس غامضة. يُعد هذا النظام أحد أهم جوانب البوذية، ليس فقط من وجهة نظر أهميته التاريخية وحيويته الروحية، ولكن من وجهة نظر أسلوبه الأكثر أصالة وإثارة في التعبير. "مذهب قلب بوذا (*buddhahridaya*)" هو اسمه المدرسي، ولكنه يُعرف بشكل أكثر شيوعًا باسم "الزن". سيتم شرح أن الزن ليس هو نفسه الديانة، على الرغم من أن مصطلح الزن مشتق من الترجمة الصينية (*ch'an-na*؛ *zenna* باليابانية) للسنسكريتية الأصلية، لاحقًا.

تتميز هذه المدرسة بخصائص فريدة من نوعها في تاريخ الأديان من نواحٍ عديدة. يمكن القول إن مذاهبها، من الناحية النظرية، هي مذاهب التصوف التأملي، ولكنها تُعرض وتُبرهن بطريقة لا يستطيع فهم معناها النهائي إلا أولئك المتأهلون الذين اكتسبوا بالفعل، بعد تدريب طويل، فهمًا عميقًا للنظام. أما بالنسبة لأولئك الذين لم يكتسبوا هذه المعرفة العميقة، أي أولئك الذين لم يختبروا الزن في حياتهم اليومية النشطة، فإن تعاليمه، أو بالأحرى أقواله، تتخذ جانباً غريباً وغير مهذب، بل وغامضاً. هؤلاء الأشخاص، الذين ينظرون إلى الزن بشكل مفاهيمي إلى حد ما، يعتبرون الزن سخيفًا ومثيرًا للسخرية تمامًا، أو أنه يجعل نفسه غير مفهوم عمدًا من أجل حماية عمقه الظاهر من النقد الخارجي. لكن، وفقًا لأتباع الزن، فإن عباراتها التي تبدو متناقضة ليست مصطنعة ومختلقة لإخفاء نفسها وراء ستار من الغموض؛ ولكن ببساطة لأن اللسان البشري ليس عضوًا كافيًا للتعبير عن أعمق حقائق الزن، فلا يمكن جعلها موضوعًا للعرض المنطقي؛ بل يجب تجربتها في أعماق الروح عندما تصبح مفهومة لأول مرة. في الحقيقة، لم تُصاغ أي تعبيرات أوضح وأكثر مباشرة من تعبيرات الزن من قبل أي فرع آخر من فروع التجربة الإنسانية. "الفحم أسود" - هذا واضح بما فيه الكفاية؛ لكن الزن يحتج قائلاً: "الفحم ليس أسود". هذا واضح بما فيه الكفاية، بل وأكثر وضوحاً من البيان الإيجابي الأول عندما نصل إلى حقيقة الأمر.

لذلك، فإن التجربة الشخصية هي كل شيء في الزن. لا يمكن فهم أي فكرة لمن لا يملكون أساساً من الخبرة. هذا كلام مبتذل. ليس لدى الطفل أفكار، لأن عقله لم يتطور بعد إلى درجة تمكنه من تجربة أي شيء يتعلق بالأفكار. إذا كان الأمر كذلك على الإطلاق، فلا بد أن تكون شيئاً غامضاً للغاية وغير واضح المعالم ولا يتوافق مع الحقائق. لذلك، للحصول على فهم أوضح وأكثر فعالية لأي شيء، يجب تجربته شخصياً. وخاصة عندما يتعلق الأمر بالحياة نفسها، فإن التجربة الشخصية ضرورة مطلقة. بدون هذه التجربة، لن يتم فهم أي شيء يتعلق بعملها العميق بدقة وبالتالي بكفاءة. إن أساس جميع المفاهيم هو تجربة بسيطة وغير معقدة. يولي الزن أقصى درجات الاهتمام لهذه التجربة الأساسية، ومن حول هذا يقوم الزن ببناء كل السقالات اللفظية والمفاهيمية الموجودة في أدبياته المعروفة باسم "الأقوال" (goroku، يابانيه .؛ yu-lu، صينية.). على الرغم من أن السقالة توفر وسيلة مفيدة للغاية للوصول إلى الحقيقة الجوهرية، إلا أنها لا تزال تفصيلاً وتصنعاً. نفقد أهميتها الكاملة عندما نعتبرها حقيقة نهائية. إن طبيعة الفهم البشري تجبرنا على عدم وضع ثقة كبيرة في البنية الفوقية. إن الغموض ليس هو موضوع الزن نفسه، ولكن بالنسبة لأولئك الذين لم يلمسوا الحقيقة المركزية للحياة، يبدو الزن محيرًا لا محالة. اخترق البنية المفاهيمية العليا، وسيختفي ما يُتصور أنه غموض على الفور، وفي الوقت نفسه سيحدث تنوير يُعرف باسم الساتوري.[2]

لذلك، فإن الزن يصر بقوة وإصرار على تجربة روحية داخلية. لا يولي هذا الأمر أي أهمية جوهرية للنصوص المقدسة أو لتفاسيرها من قبل الحكماء والعلماء. تُعارض التجربة الشخصية بشدة السلطة والكشف الموضوعي، وباعتبارها الطريقة الأكثر عملية لتحقيق التنوير الروحي، يقترح أتباع الزن ممارسة الدايانا، والمعروفة باسم زانين[3] باللغة اليابانية.

لا بد من قول بعض الكلمات هنا فيما يتعلق بالتدريب المنهجي الذي يقدمه الزن لأتباعه في تحقيق البصيرة الروحية التي أشير إليها سابقًا على أنها التجربة الأساسية للزن. فهذا هو المكان الذي يتميز فيه الزن بشكل بارز عن الأشكال الأخرى للتصوف. بالنسبة لمعظم المتصوفين، تأتي هذه التجربة الروحية، الشخصية للغاية، كشيء متقطع ومعزول وغير متوقع. يستخدم المسيحيون الصلاة، أو التقشف، أو التدبر كما يسمى، كوسيلة لجلب هذا على أنفسهم، ويتركون تحقيق ذلك للنعمة الإلهية. لكن بما أن البوذية لا تعترف بوجود قوة خارقة للطبيعة في مثل هذه الأمور، فإن أسلوب الزن في التدريب الروحي عملي ومنهجي. منذ بداية تاريخها في الصين، كان هناك هذا الاتجاه واضحًا تمامًا؛ ولكن مع مرور الوقت، ظهر نظام منتظم في النهاية، ولدى مدرسة الزن في الوقت الحاضر طريقة شاملة لأتباعها لتدريب أنفسهم على تحقيق هدفهم. وهنا تكمن الفائدة العملية للزن. على الرغم من أنها تنطوي على قدر كبير من التكهنات من جهة، إلا أن انضباطها المنهجي من جهة أخرى ينتج عنه نتائج مثمرة ومفيدة للغاية فيما يتعلق بالشخصية الأخلاقية. أحيانًا ننسى طابعها المجرد للغاية عندما يتم التعبير عنها فيما يتعلق بوقائع حياتنا العملية اليومية؛ ولكن هنا يجب أن نقدر القيمة الحقيقية للزن، لأن الزن يجد فكرة عميقة لا يمكن التعبير عنها حتى في رفع إصبع، أو في قول "صباح الخير" لصديق قابلته صدفة في الشارع. في نظر الزن، الأكثر عملية هو الأكثر غموضاً، والعكس صحيح. إن نظام الانضباط الذي تتبناه مدرسة الزن هو نتاج هذه التجربة الأساسية.

قلت إن الزن صوفيّ. هذا أمر لا مفر منه، بالنظر إلى أن الزن هو السمة الأساسية للثقافة الشرقية؛ وهو ما يجعل الغرب يفشل في كثير من الأحيان في فهم أعماق العقل الشرقي بدقة، لأن التصوف بطبيعته يتحدى تحليل المنطق، والمنطق هو السمة الأكثر تميزًا للفكر الغربي. يتميز الشرق بمنهجه التركيبي في التفكير؛ فهو لا يهتم كثيراً بتفصيل التفاصيل بقدر اهتمامه بالفهم الشامل للكل، وهذا بشكل حدسي. لذلك فإن العقل الشرقي، إذا افترضنا وجوده، يكون بالضرورة غامضاً وغير محدد، ويبدو أنه لا يملك فهرساً يكشف محتوياته على الفور لشخص من الخارج. إن الأمر موجود أمام أعيننا، لأنه يرفض أن يتم تجاهله؛ ولكن عندما نحاول الإمساك به بأيدينا من أجل فحصه عن كثب أو بشكل منهجي، فإنه يفلت منا ونفقد أثره. إن الزن يتسم بالمراوغة الاستفزازية. وهذا لا يرجع بالطبع إلى أي حيلة واعية أو متعمدة يستخدمها العقل الشرقي لتجنب تدقيق الآخرين. يكمن الغموض في طبيعة العقل الشرقي، إن صح التعبير. لذلك، لفهم الشرق يجب أن نفهم التصوف؛ أي الزن.

لكن يجب التذكير بأن هناك أنواعاً مختلفة من التصوف، منها العقلاني وغير العقلاني، والتأملي والخفي، والمنطقي والخيالي. عندما أقول إن الشرق غامض، لا أعني أن الشرق خيالي وغير عقلاني، ومن المستحيل تمامًا إدخاله في نطاق الفهم الفكري. ما أقصده ببساطة هو أنه في طريقة عمل العقل الشرقي يوجد شيء هادئ، ساكن، صامت، لا يمكن إزعاجه، والذي يبدو كما لو أنه

ينظر دائمًا إلى الأبدية. لكن هذا الهدوء والصمت لا يشيران إلى مجرد خمول أو عدم نشاط. إن الصمت ليس صمت الصحراء المجردة من كل النباتات، ولا هو صمت جثة ذهبت إلى النوم والتحلل إلى الأبد. إنه صمت "هاوية أبدية" تُدفن فيها كل التناقضات والظروف؛ إنه صمت الله الذي، ينغمس بعمق في تأمل أعماله الماضية والحاضرة والمستقبلية، يجلس بهدوء على عرشه من الوحدة المطلقة والكمال. إنه "صمت الرعد" الذي يتحقق وسط وميض وضجيج التيارات الكهربائية المتعارضة. هذا النوع من الصمت يسود كل ما هو شرقي. ويل لمن يعتبرونه انحطاطاً وموتاً، لأنهم سيُغمرون بفيض هائل من النشاط ينبثق من الصمت الأبدي. وبهذا المعنى أتحدث عن التصوف في الثقافة الشرقية. ويمكنني أن أؤكد أن تنمية هذا النوع من التصوف يرجع أساساً إلى تأثير الزن. إذا كان للبوذية أن تتطور في الشرق الأقصى بحيث تلبي الرغبات الروحية لشعبها، كان عليها أن تتطور إلى الزن. الهنود متصوفون، لكن تصوفهم تأملي للغاية، ومتفكر للغاية، ومعقد للغاية، وعلاوة على ذلك، لا يبدو أن له أي علاقة حيوية وحقيقية بالعالم العملي للتفاصيل الذي نعيش فيه. أما التصوف في الشرق الأقصى، على النقيض من ذلك، فهو مباشر وعملي وبسيط بشكل مدهش. لا يمكن أن يتطور هذا إلى أي شيء آخر سوى الزن.

جميع الطوائف البوذية الأخرى في الصين وكذلك في اليابان تشير إلى أصولها الهندية بطريقة لا لبس فيها. إن تعقيدها الميتافيزيقي، وعباراتها المطولة، ومنطقها المجرد للغاية، وفهمها العميق لطبيعة الأشياء، وتفسيرها الشامل للأمور المتعلقة بالحياة، كلها أمور هندية بشكل واضح وليست صينية أو يابانية على الإطلاق. سيدرك ذلك على الفور كل من يعرف البوذية في الشرق الأقصى. على سبيل المثال، انظر إلى تلك الطقوس المعقدة للغاية التي تمارسها طائفة شينغون، وكذلك إلى أنظمة "ماندالا" المعقدة الخاصة بهم، والتي يحاولون من خلالها شرح الكون. ما كان لأي عقل صيني أو ياباني أن يتصور مثل هذه الشبكة المعقدة من الفلسفة دون أن يتأثر أولاً بالفكر الهندي. ثم لاحظ مدى التكهنية العالية في فلسفة Madhyamika، أو Tendai (*T'ien-tai* باللغة الصينية)، أو Kegon (*Avatamsaka* أو *Gandazyuha* باللغة السنسكريتية). إن قدرتهم على التجريد وفطنتهم المنطقية مذهلة حقاً. تُظهر هذه الحقائق بوضوح أن تلك الطوائف من البوذية في الشرق الأقصى هي في جوهرها واردات أجنبية.

لكن عندما نأتي إلى الزن، بعد استعراض المجال العام للبوذية، نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأن بساطتها، ومباشرتها، ونزعتها العملية، وارتباطها الوثيق بالحياة اليومية، تتناقض بشكل ملحوظ مع الطوائف البوذية الأخرى. لا شك أن الأفكار الرئيسية للزن مستمدة من البوذية، ولا يسعنا إلا أن نعتبرها تطوراً مشروعاً للأخيرة؛ ولكن هذا التطور قد تحقق من أجل تلبية المتطلبات التي تميز بشكل خاص نفسية شعوب الشرق الأقصى. لقد تخلت روح البوذية عن بنيتها الميتافيزيقية العليا لتصبح نظاماً عملياً للحياة. والنتيجة هي الزن. لذلك أجرؤ على القول بأنه في الزن توجد منهجية، أو بالأحرى متبلورة، كل فلسفة ودين وحياة شعوب الشرق الأقصى، وخاصة اليابانيين.

2
ما هو الزن؟

قبل الشروع في شرح تعاليم الزن بالتفصيل في الصفحات التالية، اسمحوا لي أن أجيب على بعض الأسئلة التي يطرحها النقاد بشكل متكرر فيما يتعلق بالطبيعة الحقيقية للزن.

هل الزن نظام فلسفي، فكري للغاية وميتافيزيقي بعمق، كما هو الحال في معظم التعاليم البوذية؟

لقد ذكرت بالفعل أننا نجد في الزن كل فلسفة الشرق متبلورة، ولكن لا ينبغي أن يؤخذ هذا على أنه يعني أن الزن فلسفة بالمعنى العادي للكلمة. إن الزن ليس نظاماً قائماً على المنطق والتحليل. بل إنها نقيض المنطق، وأعني بذلك نمط التفكير الثنائي. قد يكون هناك عنصر فكري في الزن، لأن الزن هو العقل كله، ونجد فيه أشياء كثيرة؛ لكن العقل ليس شيئًا مركبًا يمكن تقسيمه إلى العديد من الملكات، فلا يترك شيئًا وراءه عند انتهاء التشريح. لا يقدم لنا الزن أي شيء فيما يتعلق بالتحليل الفكري؛ كما أنه لا يحتوي على أي عقائد محددة تُفرض على أتباعه لقبولها. في هذا الصدد، يُعتبر الزن فوضوياً إلى حد ما إذا اخترت أن تقول ذلك. ربما يمتلك أتباع الزن مجموعات من المذاهب، لكنهم يمتلكونها لحسابهم الخاص، ولمصلحتهم الخاصة؛ فهم لا يدينون بذلك للزن. لذلك، لا يوجد في الزن كتب مقدسة أو مبادئ عقائدية، ولا توجد أي صيغ رمزية يمكن من خلالها الوصول إلى معنى الزن. إذا سُئلت إذن عما يعلمه الزن، فسأجيب بأن الزن لا يعلم شيئاً. مهما كانت التعاليم الموجودة في الزن، فإنها تنبع من عقل المرء نفسه. نحن نعلم أنفسنا؛ أما الزن فهو مجرد دليل يرشدنا إلى الطريق. ما لم يكن هذا التوجيه تعليماً، فليس هناك بالتأكيد شيء في الزن تم وضعه عن قصد كمبادئ أساسية أو كفلسفة جوهرية.

يدّعي الزن أنه بوذية، لكن جميع التعاليم البوذية كما وردت في السوترا والشاسترا تُعامل من قبل الزن على أنها مجرد ورق مهمل لا فائدة منه سوى مسح أوساخ العقل لا أكثر. لكن لا تتخيل أن الزن هو العدمية. كل العدمية مدمرة للذات، ولا تنتهي إلى أي مكان. إن السلبية سليمة كمنهج، لكن الحقيقة الأسمى هي التأكيد. عندما يقال إن الزن ليس لديه فلسفة، وأنه ينكر كل سلطة عقائدية، وأنه يتجاهل كل ما يسمى بالأدب المقدس باعتباره قمامة، يجب ألا ننسى أن الزن يحمل في فعل النفي هذا شيئًا إيجابيًا تمامًا ومؤكدًا إلى الأبد. سيتضح هذا الأمر أكثر مع تقدمنا.

هل الزن دين؟ إنها ليست ديانة بالمعنى الشائع للمصطلح؛ لأن الزن ليس لديه إله يعبده، ولا طقوس احتفالية يلتزم بها، ولا مسكن مستقبلي يُقدر أن يذهب إليه الموتى، وأخيرًا، ليس للزن روح يجب أن يعتني بها شخص آخر، وخلودها مسألة تثير قلقًا شديدًا لدى بعض الناس. إن الزن متحرر من كل هذه القيود العقائدية و"الدينية".

عندما أقول إنه لا يوجد إله في الزن، قد يصدم القارئ المتدين، لكن هذا لا يعني أن الزن ينكر وجود الله؛ فلا الإنكار ولا التأكيد يتعلقان بالزن. عندما يتم إنكار شيء ما، فإن الإنكار نفسه ينطوي على شيء لم يتم إنكاره. وينطبق الشيء نفسه على التأكيد. هذا أمر لا مفر منه في المنطق. يسعى الزن إلى الارتقاء فوق المنطق، ويريد أن يجد تأكيداً أعلى حيث لا توجد أضداد. لذلك، في الزن، لا ينكر وجود الله ولا يؤكده؛ فقط لا يوجد في الزن إله كما تصوره العقول اليهودية والمسيحية. وللسبب نفسه الزن ليس فلسفة، و الزن ليس ديناً.

أما بالنسبة لجميع صور البوذات والبوديساتفا والديفا والكائنات الأخرى التي يصادفها المرء في معابد الزن، فهي تشبه العديد من قطع الخشب أو الحجر أو المعدن؛ إنها مثل الكاميليا أو الأزاليا أو الفوانيس الحجرية في حديقتي. يقول الزن: "أظهروا الخضوع لزهرة الكاميليا الآن وهي في أوج ازدهارها، واعبدوها إن شئتم". إن في ذلك قدراً كبيراً من التدين، تماماً كما هو الحال في الانحناء أمام مختلف الآلهة البوذية، أو رش الماء المقدس، أو المشاركة في عشاء الرب. كل تلك الأعمال الصالحة التي يعتبرها معظم من يطلق عليهم الأشخاص المتدينون أعمالاً جليلة أو مقدسة هي مجرد مظاهر مصطنعة في نظر الزن. ويعلن بجرأة أن

"اليوغيين الأطهار لا يدخلون النيرفانا، والرهبان الذين ينتهكون الوصايا لا يذهبون إلى الجحيم". هذا، بالنسبة للعقول العادية، هو تناقض مع القانون العام للحياة الأخلاقية، ولكن في هذا تكمن حقيقة وحياة الزن. الزن هو روح الإنسان. يؤمن الزن بنقائه الداخلي وخيره. كل ما يُضاف أو يُنتزع بعنف يضر بنقاء الروح . لذلك، فإن الزن يعارض بشدة كل أشكال التقاليد الدينية.

لكن عدم تدينه ليس إلا أمراً ظاهرياً. سيتفاجأ المتدينون حقاً عندما يكتشفون أن هناك الكثير من الدين في الإعلان البربري للزن. لكن القول بأن الزن دين، بالمعنى الذي تعتبر به المسيحية أو الإسلام ديناً، سيكون خطأً. ولتوضيح وجهة نظري بشكل أفضل، أقتبس ما يلي. يقال إنه عندما ولد شاكياموني، رفع إحدى يديه نحو السماء وأشار باليد الأخرى إلى الأرض، وهو يصيح قائلاً: "فوق السماوات وتحت السماوات، أنا وحدي المكرم!" يعلق أومون (يون مين)، مؤسس مدرسة أومون للزن، على هذا قائلاً: "لو كنت معه في لحظة نطقه بهذا الكلام، لكنت بالتأكيد قد قتلته بضربة واحدة وألقيت بجثته في فم كلب جائع". أيٍ من غير المؤمنين قد يفكر في إطلاق مثل هذه التصريحات الهستيرية بحق زعيم روحي؟ لكن أحد معلمي الزن الذين يتبعون أومون يقول: "في الواقع، هذه هي الطريقة التي يرغب بها أومون في خدمة العالم، حيث يضحي بكل ما يملك، جسده وعقله! كم كان يشعر بالامتنان لحب بوذا!"

لا ينبغي الخلط بين الزن وشكل من أشكال التأمل كما يمارسه أتباع "الفكر الجديد"، أو العلماء المسيحيون، أو السانياسيون الهندوس، أو بعض البوذيين. لا يتوافق مفهوم الدايانا، كما هو مفهوم في الزن، مع الممارسة التي يتم القيام بها في الزن. قد يتأمل الرجل في موضوع ديني أو فلسفي أثناء تأديب نفسه في الزن، لكن ذلك ليس إلا أمراً عرضياً؛ فجوهر الزن غير موجود هناك على الإطلاق. يهدف الزن إلى تهذيب العقل نفسه، وجعله سيد نفسه، من خلال فهم طبيعته الحقيقية. إن الوصول إلى الطبيعة الحقيقية لعقل المرء أو روحه هو الهدف الأساسي للبوذية الزن. لذلك، فإن الزن هو أكثر من مجرد التأمل والدايانا بمعناهما العادي. تتمثل ممارسة الزن في فتح العين العقلية للنظر في السبب الحقيقي للوجود.

لكي يتأمل الإنسان، عليه أن يثبت فكره على شيء ما؛ على سبيل المثال، على وحدانية الله، أو حبه اللامتناهي، أو على زوال الأشياء. لكن هذا هو بالضبط ما يرغب الزن في تجنبه. إذا كان هناك شيء يؤكد عليه الزن بشدة فهو تحقيق الحرية؛ أي التحرر من جميع القيود غير الطبيعية. التأمل شيء مصطنع؛ فهو لا ينتمي إلى النشاط الطبيعي للعقل. على ماذا تتأمل طيور السماء؟ على ماذا تتأمل الأسماك في الماء؟ إنهم يطيرون؛ إنهم يسبحون. أليس هذا كافياً؟ من يريد أن يركز فكره على وحدة الله والإنسان، أو على عدمية هذه الحياة؟ من يريد أن يُقيّد في تجليات حياته اليومية بتأملات مثل صلاح الكائن الإلهي أو نار جهنم الأبدية؟

يمكننا القول إن المسيحية توحيدية، والفيدانتا واحدية؛ لكن لا يمكننا تقديم تأكيد مماثل بشأن الزن. الزن ليس توحيدياً ولا واحدياً؛ الزن يتحدى كل هذه التصنيفات. لذا، لا يوجد في الزن شيء يمكن تثبيت الفكرة عليه. الزن هو سحابة ترفرف في السماء. لا يوجد مسمار يثبته، ولا خيط يمسكه؛ إنه يتحرك كما لو كان يميل. مهما بلغت كمية التأمل، فلن يبقى الزن في مكانه. التأمل ليس زن. لا يوفر كل من الواحدية والتوحيد موضوعات التركيز الخاصة بالزن. إذا كان الزن مذهبًا توحيديًا، فقد تحث أتباعها على التأمل في وحدة الأشياء حيث يتم محو جميع الاختلافات وعدم المساواة، المغلفة بالسطوع المنير للنور الإلهي. لو كان الزن قائما على الواحدية، لأخبرنا أن كل زهرة، مهما كانت دنيئة، في الحقل تعكس مجد الله. لكن ما يقوله الزن هو "بعد أن تُختزل كل الأشياء إلى وحدة واحدة، فأين ستُختزل تلك الوحدة؟" يسعى الزن إلى تحرير العقل وتخليصه من العوائق؛ حتى فكرة الوحدة أو الكل هي حجر عثرة وفخ خانق يهدد الحرية الأصلية للروح.

لذلك، فإن الزن لا يطلب منا تركيز تفكيرنا على فكرة أن الكلب هو الله، أو أن ثلاثة أرطال من الكتان إلهية. عندما يفعل الزن ذلك، فإنه يلتزم بنظام فلسفي محدد، ولا يبقى هناك زن بعد ذلك. يشعر الزن بدفء النار وببرودة الجليد، لأنه عندما يتجمد الجو نرتجف ونرحب بالنار. الشعور في المجمل، كما يقول فاوست؛ أن كل تنظيراتنا تفشل في ملامسة الواقع. لكن يجب فهم "الشعور" هنا بأعمق معانيه أو في أنقى صوره. حتى قول "هذا هو الشعور" يعني أن الزن لم يعد موجوداً. يتحدى الزن كل عملية صياغة مفاهيمية. ولهذا السبب يصعب فهم الزن.

أياً كان التأمل الذي قد يقترحه الزن، فسيكون ذلك هو أخذ الأمور كما هي، والنظر إلى بياض الثلج وسواد الغراب. عندما نتحدث عن التأمل فإننا في معظم الحالات نشير إلى طابعه المجرد؛ أي أن التأمل معروف بأنه تركيز العقل على بعض القضايا العامة للغاية، والتي لا ترتبط دائمًا بشكل وثيق ومباشر بالشؤون الملموسة للحياة، وذلك بحكم طبيعة الأشياء. الزن يدرك أو يشعر، ولا يتجرد ولا يتأمل. يتغلغل الزن ويضيع في النهاية في الانغماس. أما التأمل، من ناحية أخرى، فهو ثنائي بشكل واضح، وبالتالي سطحي حتماً.

يعتبر أحد النقاد[1] الزن "النظير البوذي لـ "التمارين الروحية" للقديس إغناطيوس لويولا". يُظهر الناقد ميلاً كبيراً لإيجاد تشبيهات مسيحية لأمور بوذية، وهذه إحدى تلك الحالات. أولئك الذين لديهم فهم واضح للزن سيرون على الفور مدى بُعد هذه المقارنة عن الصواب. حتى من الناحية الظاهرية، لا يوجد أي تشابه بين تمارين الزن وتلك التي اقترحها مؤسس جمعية يسوع. إن تأملات وصلوات القديس إغناطيوس، من وجهة نظر الزن، ليست سوى العديد من تخيلات الخيال المنسوجة بشكل متقن لفائدة ذوي العقول المتدينة؛ وفي الواقع يشبه هذا تكديس البلاط فوق البلاط على رأس المرء، ولا يوجد مكسب حقيقي في حياة الروح. ومع ذلك، يمكننا القول إن تلك "التمارين الروحية" تشبه إلى حد ما بعض تأملات بوذية هينايانا، مثل طرق تهدئة العقل الخمسة، أو الأفكار التسعة حول النجاسة، أو المواضيع الستة أو العشرة للذاكرة.

يُفسر مصطلح "الزن" أحيانًا على أنه "قتل العقل ولعنة التأملات الخاملة". هذا ما قاله غريفيس، المؤلف المعروف لكتاب "أديان اليابان". [2]بكلمة "قتل العقل" لا أعرف ما الذي يقصده حقًا، ولكن هل يعني أن الزن يقتل أنشطة العقل بجعل فكر المرء يركز على شيء واحد، أم عن طريق التسبب في النوم؟ يؤيد السيد رايشاور في كتابه [3]هذا الرأي الذي طرحه غريفيس من خلال التأكيد على أن الزن هو "نشوة ذاتية صوفية". هل يعني ذلك أن الزن منشي بـ "الذات العليا"؛ كما هو مسمى، كما كان سبينوزا منتشي بالله؟ على الرغم من أن السيد رايشاور ليس واضحًا تمامًا بشأن معنى "النشوة"، إلا أنه قد يعتقد أن الزن منغمس بشكل مفرط في فكرة "الذات العليا" باعتبارها الحقيقة النهائية في هذا العالم من الجزئيات. من المدهش أن نرى مدى سطحية بعض المراقبين غير النقديين للزن! في الواقع، لا يوجد في الزن "عقل" لقتله؛ لذلك، لا يوجد "قتل العقل" في الزن. لا يوجد في الزن مرة أخرى "ذات" كشيء يمكننا التشبث به كملجأ؛ لذلك، لا توجد في الزن مرة أخرى "ذات" يمكننا أن ننتشي بها.

الحقيقة هي أن الزن مراوغ للغاية فيما يتعلق بجوانبه الخارجية؛ فعندما تعتقد أنك قد لمحته، فإنه يختفي؛ من بعيد يبدو سهل المنال، ولكن بمجرد أن تقترب منه تراه أبعد منك مما كان عليه من قبل. لذلك، ما لم تكرس سنوات من الدراسة الجادة لفهم مبادئه الأساسية، فليس من المتوقع أن تبدأ في فهم الزن بشكل جيد.

"إن السبيل للصعود إلى الله هو النزول إلى الذات"؛ - هذه كلمات هوغو. "إذا كنت ترغب في البحث عن الأمور العميقة لله، فابحث في أعماق روحك"؛ - هذا مقتبس من ريتشارد من سانت فيكتور. عندما يتم البحث في كل هذه الأشياء العميقة، لا يوجد في النهاية "ذات". حيث يمكنك النزول، لا يوجد "روح"، ولا "إله" يمكن استكشاف أعماقه. لماذا؟ لأن الزن هو هاوية لا قعر لها. يصرح الزن، وإن كان بطريقة مختلفة إلى حد ما: "لا شيء موجود حقًا في جميع أنحاء العالم الثلاثي؛ أين تريد أن ترى العقل (أو الروح = $hsin$)؟" العناصر الأربعة كلها فارغة في طبيعتها النهائية؛ فأين يمكن أن يكون مسكن بوذا؟ - ولكن فجأة! الحقيقة تتكشف أمام عينيك مباشرة. هذا كل ما في الأمر - ولا شيء أكثر من ذلك! دقيقة واحدة من التردد، ويضيع الزن بشكل لا رجعة فيه. قد يحاول جميع بوذا الماضي والحاضر والمستقبل أن يجعلك تلتقطه مرة أخرى، ومع ذلك فهو على بعد ألف ميل. "قتل العقل" و"النشوة الذاتية"، يا للعجب! لا يملك الزن وقتاً ليشغل نفسه بمثل هذه الانتقادات.

قد يقصد النقاد أن العقل يتم تنويمه مغناطيسياً بواسطة الزن إلى حالة من اللاوعي، وأنه عندما يحدث هذا، يتم تحقيق المذهب البوذي المفضل للفراغ (شونياتا)، حيث لا يكون الشخص واعياً بعالم موضوعي أو بنفسه، ويضيع في فراغ هائل واحد، مهما كان هذا الفراغ. هذا التفسير يفشل مرة أخرى في فهم جوهر الزن بشكل صحيح. صحيح أن هناك بعض التعبيرات في الزن التي قد توحي بهذا النوع من التفسير، ولكن لفهم الزن يجب علينا القيام بقفزة هنا. يجب اجتياز "الفراغ الشاسع". يجب إيقاظ الشخص من حالة فقدان الوعي إذا كان لا يرغب في أن يُدفن حياً. لا يتحقق الزن إلا عندما يتم التخلي عن "النشوة الذاتية" ويستيقظ "المنشي" حقًا على ذاته الأعمق. إذا كان لا بد من "قتل" العقل، فاترك الأمر في يد الزن؛ لأن الزن هو الذي سيعيد المقتول

والميت إلى حالة الحياة الأبدية. "أولدوا من جديد، استيقظوا من الحلم، انهضوا من الموت، أيها السكارى!" الزن سيقول ذلك. لذلك، لا تحاول أن ترى الزن وعيناك معصوبتان؛ ويديك غير ثابتتين للغاية للإمساك به. وتذكروا أنني لا أستخدم المجازات.

قد أكرر العديد من هذه الانتقادات إذا لزم الأمر، لكنني آمل أن يكون ما سبق قد هيأ ذهن القارئ بشكل كافٍ للبيانات الإيجابية التالية المتعلقة بالزن. تتمثل الفكرة الأساسية للزن في التواصل مع العمليات الداخلية لكياننا، والقيام بذلك بأكثر الطرق مباشرة ممكنة، دون اللجوء إلى أي شيء خارجي أو إضافي. لذلك، فإن أي شيء له مظهر من مظاهر السلطة الخارجية مرفوض من قبل الزن. يُوضع الإيمان المطلق في أعماق الإنسان. فمهما كانت السلطة الموجودة في الزن، فإن كل شيء ينبع من الداخل. هذا صحيح بالمعنى الدقيق للكلمة. حتى ملكة التفكير لا تعتبر نهائية أو مطلقة. بل على العكس من ذلك، فإنه يعيق العقل عن التواصل المباشر مع نفسه. ينجز العقل مهمته عندما يعمل كوسيط، ولا علاقة للزن بوسيط إلا عندما يرغب في التواصل مع الآخرين. ولهذا السبب فإن جميع الكتب المقدسة هي مجرد مؤقتة وظرفية؛ ليس فيها أي نهائية. إن الحقيقة المركزية للحياة كما تُعاش هي ما يهدف الزن إلى فهمه، وذلك بأكثر الطرق مباشرة وحيوية. يزعم الزن أنه روح البوذية، لكنه في الواقع روح جميع الأديان والفلسفات. عندما يتم فهم الزن بشكل كامل، يتم تحقيق راحة البال المطلقة، ويعيش الإنسان كما ينبغي أن يعيش. ماذا نأمل أكثر من ذلك؟

يقول البعض إنه بما أن الزن هو شكل من أشكال التصوف، فلا يمكنه الادعاء بأنه فريد في تاريخ الأديان. ربما يكون الأمر كذلك؛ لكن الزن هو نوع من التصوف من نوعه الخاص. إنه أمرٌ غامضٌ بمعنى أن الشمس تشرق، وأن الزهرة تتفتح، وأنني أسمع في هذه اللحظة شخصاً يقرع طبلاً في الشارع. إذا كانت هذه حقائق غامضة، فإن فلسفة الزن مليئة بها. عندما سُئل أحد معلمي الزن ذات مرة عن ماهية الزن، أجاب: "فكرتك اليومية". أليس هذا واضحاً ومباشراً للغاية؟ لا علاقة للأمر بأي نزعة طائفية. يمكن للمسيحيين والبوذيين على حد سواء ممارسة الزن، تماماً كما تعيش الأسماك الكبيرة والصغيرة في نفس المحيط بسعادة. الزن هو المحيط، الزن هو الهواء، الزن هو الجبل، الزن هو الرعد والبرق، زهرة الربيع، حرارة الصيف، وثلوج الشتاء؛ بل وأكثر من ذلك، الزن هو الإنسان. على الرغم من كل الشكليات والتقليديات والإضافات التي تراكمت لدى الزن في تاريخه الطويل، إلا أن حقيقته المركزية لا تزال حية للغاية. تكمن الميزة الخاصة للزن في هذا: أننا ما زلنا قادرين على رؤية هذه الحقيقة النهائية دون أن نتأثر بأي شيء.

كما قيل من قبل، فإن ما يجعل الزن فريدًا كما يُمارس في اليابان هو تدريبه المنهجي للعقل. لقد كان التصوف العادي نتاجاً متقلباً للغاية ومنفصلاً عن الحياة العادية؛ لقد أحدث هذا الزن ثورة. ما كان في السماء، أنزله الزن إلى الأرض. مع تطور الزن، لم يعد التصوف صوفياً؛ لم يعد نتاجاً عفوياً لعقل موهوب بشكل غير طبيعي. لأن الزن يتجلى في أكثر حياة رجل عادي من الشارع رتابةً وهدوءاً، مدركاً حقيقة العيش في خضم الحياة كما هي. يدرب الزن العقل بشكل منهجي على رؤية هذا؛ فهو يفتح عين الإنسان على أعظم سر كما يتم القيام به يوميًا وساعة بساعة؛ ويوسع القلب ليحتضن أبدية الزمان ولا نهائية المكان في كل نبضة؛ ويجعلنا نعيش في العالم كما لو كنا نسير في جنة عدن؛ وكل هذه الإنجازات الروحية تتحقق دون اللجوء إلى أي عقائد، ولكن ببساطة من خلال التأكيد بأكثر الطرق مباشرة على الحقيقة الكامنة في كياننا الداخلي.

مهما كانت طبيعة الزن، فهي عملية وشائعة وفي الوقت نفسه الأكثر واقعية. قام أحد المعلمين القدماء، رغبةً منه في إظهار ماهية الزن، برفع أحد أصابعه، وركل آخر كرة، وصفع ثالث وجه من سأله. إذا تم إثبات الحقيقة الداخلية الكامنة في أعماقنا بهذه الطريقة، ألا يعتبر الزن الطريقة الأكثر عملية ومباشرة للتدريب الروحي التي لجأت إليها أي ديانة على الإطلاق؟ أليست هذه الطريقة العملية أيضاً طريقة مبتكرة للغاية؟ في الواقع، لا يمكن أن يكون الزن إلا أصيلاً ومبدعاً لأنه يرفض التعامل مع المفاهيم ولكنه يتعامل مع حقائق الحياة الحية. عند فهمه بشكل مفاهيمي، فإن رفع الإصبع هو أحد أكثر الأحداث عادية في حياة كل شخص. لكن عندما يُنظر إليه من وجهة نظر الزن، فإنه يهتز بالمعنى الإلهي والحيوية الإبداعية. طالما أن الزن قادر على الإشارة إلى هذه الحقيقة في خضم وجودنا التقليدي والمقيد بالمفاهيم، يجب أن نقول إن له سبب لوجوده.

قد يجيب الاقتباس التالي من رسالة يينغو (يوان وو في حوالي 1566-1642) إلى حد ما على السؤال المطروح في بداية هذا الفصل، "ما هو الزن؟"

"يتم عرض الأمر أمامك مباشرة، وفي هذه اللحظة يتم تسليم كل شيء إليك. بالنسبة لشخص ذكي، تكفي كلمة واحدة لإقناعه بصحة الأمر، ولكن حتى مع ذلك فقد تسلل الخطأ. بل وأكثر من ذلك عندما يتم تدوينها على الورق والحبر، أو التخلي عنها لعرض كلامي مطوّل أو جدال منطقي، فإنها حينها تبتعد عنك أكثر فأكثر. الحقيقة العظيمة للزن يمتلكها الجميع. انظر إلى داخل نفسك ولا تبحث عنه من خلال الآخرين. عقلك الخاص فوق كل الأشكال؛ إنه حر وهادئ وكافٍ؛ إنه يطبع نفسه إلى الأبد في حواسك الست وعناصرك الأربعة. في ضوئه يمتص كل شيء. أسكت ثنائية الذات والموضوع، انسَ كليهما، تجاوز العقل، انفصل عن الفهم، واخترق مباشرة بعمق هوية عقل بوذا؛ خارج هذا لا توجد حقائق. لذلك، عندما جاء بوديدهارما من الغرب، أعلن ببساطة: "إن مذهبي فريد من نوعه، إذ يشير مباشرة إلى روح المرء، ولا تعيقه التعاليم الكنسية؛ إنه النقل المطلق للختم الحقيقي". لا علاقة للزن بالحروف أو الكلمات أو النصوص المقدسة. كل ما يطلبه منك هو أن تفهم النقطة مباشرة، ومن ثم تجد مسكنك الهادئ. عندما يضطرب العقل، يضطرب الفهم، وتُدرك الأشياء، وتُطرح الأفكار، وتُستحضر الأرواح، وتنتشر الأحكام المسبقة. عندها سيضيع الزن إلى الأبد في المتاهة.

قال الحكيم سيكيسو (شيه شوانغ): "توقف عن كل رغباتك؛ دع العفن ينمو على شفتيك (أي، النقاء والصفاء الداخلي)؛ اجعل نفسك مثل قطعة حرير مثالية لا تشوبها شائبة؛ اجعل فكرتك الوحيدة هي الخلود؛ دع نفسك مثل الرماد الميت، باردًا وبلا حياة؛ مرة أخرى دع نفسك مثل مبخرة قديمة في ضريح قرية مهجورة!"

"ضع إيمانك البسيط في هذا، وقم بتدريب نفسك وفقًا لذلك؛ دع جسدك وعقلك يتحولان إلى شيء جامد من الطبيعة مثل الحجر أو قطعة من الخشب؛ عندما يتم الحصول على حالة من السكون التام وعدم الوعي، ستختفي جميع علامات الحياة، وكذلك كل أثر للقيود. لن تزعج أي فكرة وعيك، وفجأة! ستدرك نورًا يفيض بالبهجة الكاملة. يشبه الأمر العثور على ضوء في ظلام دامس؛ يشبه الأمر الحصول على كنز في الفقر. لم تعد العناصر الأربعة والمجموعات الخمسة تُشعر كأعباء؛ فأنت خفيف وسهل وحر للغاية. لقد تحرر وجودك من جميع القيود؛ لقد أصبحت منفتحاً، ونورانياً، وشفافاً. تكتسب نظرة ثاقبة مستنيرة حول طبيعة الأشياء نفسها، والتي تبدو لك الآن وكأنها أزهار خيالية لا وجود لها في الواقع. هنا تتجلى الذات غير المتطورة التي هي الوجه الأصلي لوجودك؛ هنا يظهر كل شيء عارياً أجمل منظر طبيعي لمسقط رأسك. لا يوجد سوى ممر مستقيم واحد مفتوح وغير مسدود وسالك. هذا هو الحال عندما تتخلى عن كل شيء - جسدك، وحياتك، وكل ما ينتمي إلى أعماق نفسك. هنا تجد السلام والراحة والهدوء والبهجة التي لا توصف. إن جميع السوترا والشاسترا ليست سوى اتصالات بهذه الحقيقة؛ فقد استنفد جميع الحكماء، القدماء والمعاصرين، براعتهم وخيالهم لغرض واحد فقط هو الإشارة إلى الطريق إلى هذا. يشبه الأمر فتح باب كنز؛ فبمجرد فتح الباب، يصبح كل شيء يقع في نظرك ملكًا لك، وكل فرصة تتاح لك متاحة لاستخدامك؛ أليست هذه الأشياء، مهما كثرت، جميعها ممتلكات يمكن الحصول عليها داخل كيانك الأصلي؟ كل كنز موجود ينتظر متعتك واستخدامك. هذا هو المقصود بعبارة "ما يُكتسب مرة واحدة، يُكتسب إلى الأبد، حتى نهاية الزمان". لكن في الحقيقة لا يوجد شيء مكتسب؛ ما اكتسبته ليس مكسباً، ومع ذلك هناك شيء مكتسب حقاً في هذا الأمر."

3
هل الزن عدمي؟

في تاريخ الزن، يحتل يينو (هوي نينغ، [1] 638-713)، الذي يعتبر تقليديًا البطريرك السادس لطائفة الزن في الصين، مكانة بالغة الأهمية. في الواقع، هو مؤسس مذهب الزن، وهو ما يميزه عن الطوائف البوذية الأخرى التي كانت موجودة آنذاك في الصين. المعيار الذي وضعه باعتباره التعبير الحقيقي عن عقيدة الزن هو هذا المقطع الشعري:

إن البودي (الحكمة الحقيقية) ليس كالشجرة؛

المرآة الساطعة لا تضيء في أي مكان:

بما أنه لا يوجد شيء من الأول،

أين يتجمع الغبار نفسه؟

كُتب هذا رداً على مقطع شعري ألفه راهب زن آخر زعم أنه فهم العقيدة في نقائها. يقول في أبياته:

هذا الجسد هو شجرة البودي؛

الروح كالمرآة اللامعة؛

احرص على إبقائها نظيفة دائماً،

ولا تدع الغبار يتراكم عليها.

كان كلاهما من تلاميذ البطريرك الخامس، غونين (هونغ-جين، توفي عام 675)؛ وكان يعتقد أن يينو قد فهم روح الزن بشكل صحيح، وبالتالي، كان جديراً بارتداء عباءته وحمل وعاءه كخليفة حقيقي له في الزن. إن اعتراف المعلم بدلالة المقطع الأول من قصيدة يينو يرسخها باعتبارها التعبير الأرثوذكسي عن عقيدة الزن. وبما أنه يبدو أنه ينبض بروح العدم، فإن الكثير من الناس يعتبرون الزن داعياً إلى العدمية. يهدف هذا الفصل إلى دحض هذا الادعاء.

صحيح أن هناك العديد من المقاطع في أدب الزن التي يمكن تفسيرها على أنها تنقل عقيدة عدمية؛ على سبيل المثال، نظرية الشونياتا (الفراغ).[2]حتى بين أولئك العلماء المطلعين جيدًا على التعاليم العامة للبوذية الماهايانية، لا يزال البعض متمسكًا بالرأي القائل بأن الزن هو التطبيق العملي لفلسفة "سانرون" (سان-لون)، والمعروفة أيضًا باسم مدرسة مادياميكا. سانرون تعني "الرسائل الثلاث"، وهي مادياميكا شاسترا لناغارجونا وخطاب الأقسام الاثني عشر، وخطاب ديفا المكون من مائة مقطع. وهي تشمل جميع المبادئ الأساسية لهذه المدرسة. يُعتقد أن ناغارجونا هو مؤسسها، وبما أن نصوص الماهايانا المصنفة تحت عنوان براجناباراميتا تشرح وجهات نظر متشابهة إلى حد كبير، فإن فلسفة هذه المدرسة تُعرف أحيانًا باسم مذهب براجنا. لذلك، يعتقدون أن الزن ينتمي عمليًا إلى هذه الفئة؛ بعبارة أخرى، فإن المعنى النهائي للزن سيكون هو الحفاظ على نظام الشونياتا (الفراغ).

إلى حد ما، ظاهرياً على الأقل، يمكن تبرير هذا الرأي. على سبيل المثال، اقرأ ما يلي:

سأل أحد التلاميذ معلمه: "لقد جئت إلى هنا لأبحث عن حقيقة البوذية".

"لماذا تبحث عن مثل هذا الشيء هنا؟" أجاب المعلم. "لماذا تتجولون هنا وهناك، متجاهلين كنزكم الثمين في المنزل؟ ليس لدي ما أقدمه لك، وما هي حقيقة البوذية التي ترغب في إيجادها في ديري؟ لا يوجد شيء، لا شيء على الإطلاق."

كان المعلم يقول أحياناً: "أنا لا أفهم الزن". ليس لدي ما أثبته هنا؛ لذلك، لا تبقى واقفاً هكذا، متوقعاً الحصول على شيء من لا شيء. استنير بنفسك، إن شئت. إذا كان هناك أي شيء يستحق التمسك به، فافعله بنفسك."

مرة أخرى: "المعرفة الحقيقية (بودي) تتجاوز جميع أساليب التعبير". لم يكن هناك شيء منذ البداية يمكن للمرء أن يدعي أنه قد حقق تقدماً نحو التنوير.

أو: "في الزن لا يوجد شيء يمكن شرحه بالكلمات، ولا يوجد شيء يمكن تقديمه كعقيدة مقدسة. ثلاثون ضربة سواء أيدت ذلك أم نفيته. لا تصمت، ولا تتحدث كثيراً."

السؤال: "كيف يمكن للمرء أن يكون دائماً مع بوذا؟" استدعى الإجابة التالية من أحد المعلمين: "لا تدع أي اضطراب في ذهنك؛ كن هادئًا تمامًا تجاه العالم الموضوعي. إن البقاء على هذه الحال طوال الوقت في حالة من الفراغ والهدوء المطلقين هو السبيل إلى التواجد مع بوذا."

أحيانًا نصادف ما يلي: "الطريق الوسط هو حيث لا يوجد وسط ولا جانبان. عندما تكون مقيداً بالعالم الموضوعي، يكون لديك جانب واحد؛ وعندما تكون مضطرباً في عقلك، يكون لديك الجانب الآخر. عندما لا يوجد أي من هذين الأمرين، فلا يوجد حل وسط، وهذا هو الطريق الوسط.

كان أحد أساتذة الزن اليابانيين الذين ازدهروا قبل عدة مئات من السنين يقول لتلاميذه، الذين كانوا يتوسلون إليه أن يعلمهم كيفية الهروب من قيود الولادة والموت: "هنا لا توجد ولادة ولا موت".

تم سؤال بوديدهارما (داروما، باليابانية.؛ تامو، بالصينية)، أول بطريرك لطائفة الزن في الصين، من قبل وو، أول إمبراطور (حكم (502-549م) من سلالة ليانغ، فيما يتعلق بالمبدأ النهائي والأقدس للبوذية. ويُروى أن الحكيم أجاب قائلاً: "فراغ شاسع ولا شيء مقدس فيه".

هذه مقاطع مأخوذة عشوائياً من المخزون الهائل لأدب الزن، ويبدو أنها مشبعة بأفكار الفراغ (الشونياتا)، والعدم (ناستي)، والهدوء (سانتي)، وانعدام الفكر (أسينتا)، وغيرها من المفاهيم المماثلة، والتي قد نعتبرها جميعاً عدمية أو تدعو إلى السكون السلبي.

قد يكون الاقتباس من براجناباراميتا-هريدايا سوترا [3] أكثر إثارة للدهشة من أي من المقاطع المذكورة أعلاه. في الواقع، جميع السوترا التي تنتمي إلى فئة براجنا من أدب الماهايانا مشبعة تمامًا بفكرة الشونياتا، وأولئك الذين ليسوا على دراية بطريقة التفكير هذه سيصابون بالذهول وقد لا يعرفون كيف يعبرون عن حكمهم. تُتلى هذه السوترا، التي تعتبر الأكثر إيجازًا وشمولًا من بين جميع سوترا براجنا، يوميًا في الأديرة الزينية؛ في الواقع، إنها أول ما يتلوه الرهبان في الصباح وكذلك قبل كل وجبة.

"وهكذا يا ساريبوترا، فإن كل الأشياء لها صفة الفراغ، ليس لها بداية ولا نهاية، وهي كاملة وليست كاملة، وليست مثالية وليست ناقصة. لذلك يا ساريبوترا، هنا في هذا الفراغ لا يوجد شكل، ولا إدراك، ولا اسم، ولا مفاهيم، ولا معرفة. لا عين، لا أذن، لا أنف، لا لسان، لا جسد، لا عقل. لا شكل، لا صوت، لا رائحة، لا طعم، لا لمس، لا أشياء... لا وجود للمعرفة، ولا للجهل، ولا لتدمير الجهل. لا يوجد تحلل ولا موت؛ لا توجد حقائق أربع، وهي: لا يوجد ألم، ولا يوجد أصل للألم، ولا يوجد توقف للألم، ولا يوجد طريق لتوقف الألم. لا توجد معرفة بالنيرفانا، ولا سبيل للحصول عليها، ولا سبيل لعدم الحصول عليها. لذلك يا ساريبوترا،

بما أنه لا يوجد نيرفانا، فإن الرجل الذي اقترب من براجناباراميتا البوديساتفا يعيش دون عوائق في الوعي. عندما تُزال عوائق الوعي، يصبح المرء متحرراً من كل خوف، ويتجاوز حدود التغيير، ويتمتع بالنيرفانا النهائية.

عند استعراض كل هذه الاقتباسات، قد يُعتقد أن النقاد محقون في اتهام الزن بالدعوة إلى فلسفة النفي المطلق، ولكن لا شيء بعيد عن الزن كما يوحي هذا النقد. لأن الزن يهدف دائماً إلى فهم الحقيقة المركزية للحياة، والتي لا يمكن أبداً إخضاعها لتحليل العقل. لفهم هذه الحقيقة المركزية للحياة، يضطر الزن إلى اقتراح سلسلة من النفي. إلا أن مجرد النفي ليس روح الزن، ولكن بما أننا معتادون على طريقة التفكير الثنائية، فيجب استئصال هذا الخطأ الفكري من جذوره. بطبيعة الحال، سيعلن الزن: "لا هذا، ولا ذاك، ولا أي شيء". لكن قد نصرّ على سؤال الزن عما تبقى بعد كل هذه الإنكارات، وربما يصفعنا المعلم في مثل هذه المناسبة قائلاً: "يا أحمق، ما هذا؟" قد يعتبر البعض هذا مجرد ذريعة للهروب من المأزق، أو أنه لا يحمل معنى أكثر من كونه مثالاً عملياً على سوء التربية. لكن عندما يتم استيعاب روح الزن في نقائها، سيتضح مدى واقعية تلك الصفعة. لأنه لا يوجد هنا نفي ولا تأكيد، بل حقيقة واضحة، وتجربة خالصة، وهي الأساس الذي يقوم عليه وجودنا وفكرنا. كل الهدوء والفراغ الذي قد يرغب فيه المرء وسط أكثر حالات التفكير نشاطاً يكمن هناك. لا تنخدع بأي شيء خارجي أو تقليدي. يجب أن تُغتنم فلسفة الزن بأيدٍ عارية، دون ارتداء قفازات.

يضطر الزن إلى اللجوء إلى النفي بسبب جهلنا الفطري (أفيديا)، الذي يلتصق بالعقل بشدة كما تلتصق الملابس المبللة بالجسم. "الجهل" [4] أمر جيد إلى حد ما، لكن يجب ألا يخرج عن نطاقه المناسب. "الجهل" هو اسم آخر للثنائية المنطقية. الأبيض هو الثلج والأسود هو الغراب. لكن هذه الأشياء تنتمي إلى العالم وطريقته الجاهلة في الكلام. إذا أردنا الوصول إلى حقيقة الأشياء، فعلينا أن ننظر إليها من النقطة التي لم يُخلق فيها هذا العالم بعد، حيث لم يستيقظ وعي هذا وذاك بعد، وحيث يكون العقل منغمسًا في هويته الخاصة، أي في صفائه وفراغه. هذا عالم من النفي ولكنه يؤدي إلى تأكيد أعلى أو مطلق - تأكيد في خضم النفي. الثلج ليس أبيض، والغراب ليس أسود، ومع ذلك فإن كل منهما في حد ذاته أبيض أو أسود. وهنا يفشل أسلوبنا اللغوي اليومي في نقل المعنى الدقيق كما تصوره الزن.

يبدو أن الزن ينفي؛ لكنه دائماً ما يعرض أمامنا شيئاً موجوداً بالفعل أمام أعيننا مباشرة؛ وإذا لم نلتقطه بأنفسنا، فهذا خطأنا. معظم الناس، الذين تُظلم رؤيتهم العقلية بسحب الجهل، يتجاهلونها ويرفضون النظر إليها. بالنسبة لهم، فإن الزن هو في الواقع العدمية لمجرد أنهم لا يرونه. عندما كان أوباكو (هوانغ-بو، توفي عام 850) يؤدي التحية لبوذا في المعبد، اقترب منه أحد تلاميذه وقال: "عندما يقول الزن ألا نسعى إليه من خلال بوذا، ولا من خلال الدارما، ولا من خلال السانغا، فلماذا تسجد لبوذا كما لو كنت ترغب في الحصول على شيء ما من خلال هذا العمل التقي؟"

أجاب المعلم: "أنا لا أسعى إلى ذلك من خلال بوذا، ولا من خلال الدارما، ولا من خلال السانغا؛ أنا فقط أستمر في القيام بهذا العمل من أعمال التقوى لبوذا".

همهم التلميذ قائلاً: "ما فائدة التظاهر بالتقوى على أي حال؟"

صفعه المعلم على وجهه، فقال التلميذ: "يا لك من وقح!"

"هل تعلم أين أنت؟" صاح المعلم. "هنا ليس لدي وقت لأفكر من أجلك في معنى الوقاحة أو الأدب." ثم تلقى صفعة أخرى.

سيدرك القراء الأذكياء في هذا الموقف الذي يتبناه أوباكو أنه حريص على إيصال شيء ما على الرغم من فظاظته الظاهرة تجاه تلميذه. إنه يمنع ظاهرياً، ولكنه يؤكد في جوهره. يجب فهم هذا الأمر إذا أردنا فهم فلسفة الزن على الإطلاق.

يمكن استخلاص موقف الزن تجاه العبادة الرسمية لله بشكل أوضح من ملاحظات جوشو (تشاو تشو، 778-897) التي وجهها إلى راهب كان ينحني باحترام أمام بوذا. عندما صفع جوشو الراهب، قال الأخير: "أليس من الأمور الجديرة بالثناء إظهار الاحترام لبوذا؟" أجاب المعلم: "نعم، ولكن من الأفضل الاستغناء حتى عن شيء جدير بالثناء". هل يحمل هذا الموقف أي نفحة

من العدمية وتحطيم الأيقونات؟ ظاهرياً، نعم؛ ولكن دعونا نتعمق في روح جوشو التي انبثق منها هذا القول، وسنجد أنفسنا نواجه تأكيداً مطلقاً يتجاوز تماماً فهمنا الخطابي.

أجرى هاكوين (1685-1768)، مؤسس الزن الياباني الحديث، مقابلة مع شوجو الجليل عندما كان لا يزال راهباً شاباً مصمماً على إتقان الزن. كان هاكوين يعتقد أنه يفهم الزن تمامًا وكان فخورًا بإنجازه، وكانت هذه المقابلة مع شوجو في الواقع تهدف إلى إظهار فهمه العالي. سأله شوجو عن مدى معرفته بالزن. أجاب هاكوين باشمئزاز: "إذا كان هناك أي شيء يمكنني أن أضع يدي عليه، فسأخرجه كله من داخلي". وبعد أن قال ذلك، تصرف كما لو كان على وشك التقيؤ. أمسك شوجو أنف هاكوين بقوة وقال: "ما هذا؟" ألم ألمسه بعد كل شيء؟ دعوا قراءنا يتأملون مع هاكوين في هذه المقابلة ويكتشفون بأنفسهم ما هو ذلك الشيء الذي تم تجسيده بشكل واقعي للغاية من قبل شوجو.

لا يقتصر الزن على النفي فقط، تاركاً العقل فارغاً تماماً كما لو كان لا شيء خالص؛ لأن ذلك سيكون انتحاراً فكرياً. يوجد في الزن شيء من التأكيد على الذات، والذي، مع ذلك، كونه حراً ومطلقاً، لا يعرف حدوداً ويرفض أن يتم التعامل معه بشكل مجرد. الزن حقيقة حية، وليست مثل صخرة غير عضوية أو مثل مساحة فراغة. إن التواصل مع هذه الحقيقة الحية - بل والتمسك بها في كل مرحلة من مراحل الحياة - هو هدف كل ممارسة من ممارسات الزن.

سأل هياكوجو (باي تشانغ، 720-814)، أحد إخوته الرهبان، نانسن (نان تشوان، 748-834) ذات مرة عما إذا كان هناك أي شيء لا يجرؤ على التحدث عنه مع الآخرين. أجاب المعلم: "نعم".

ثم تابع الراهب قائلاً: "ما هذا الشيء الذي لا تتحدث عنه إذن؟"

وكان رد المعلم: "ليست عقلاً، ولا بوذا، ولا مادة".

يبدو أن هذا هو مذهب الفراغ المطلق، ولكن حتى هنا نلاحظ لمحة عن شيء ما يظهر نفسه من خلال النفي. لاحظ الحوار اللاحق الذي دار بين الاثنين. قال الراهب:

"إذا كان الأمر كذلك، فقد تحدثت عنه بالفعل."

"لا أستطيع أن أفعل أفضل من ذلك. ماذا ستقول؟"

أجاب هياكوجو: "أنا لست من كبار المستنيرين".

قال المعلم: "حسنًا، لقد قلت الكثير بالفعل عن هذا الأمر".

يجب إدراك هذه الحالة من الوعي الداخلي، التي لا يمكننا الإدلاء بأي تصريح منطقي بشأنها، قبل أن نتمكن من إجراء أي حديث ذكي عن الزن. إن الكلمات ليست سوى مؤشر لهذه الحالة؛ فمن خلالها نتمكن من الوصول إلى معناها، ولكن لا تعتمد على الكلمات للحصول على توجيه مطلق. حاول أولاً أن ترى الحالة الذهنية التي يتصرف بها أساتذة الزن بهذه الطريقة. إنهم لا يقومون بكل تلك التصرفات التي تبدو سخيفة، أو كما قد يقول البعض، تلك التفاهات التافهة، لمجرد إرضاء أذواقهم المتقلبة. لديهم أساس متين من الحقيقة مستمدة من تجربة شخصية عميقة. يوجد في جميع عروضهم التي تبدو مجنونة، عرض منهجي لأهم حقيقة. عند النظر إلى الأمر من هذه الحقيقة، فإن حركة الكون بأكمله لا تعدو كونها طيران بعوضة أو تحريك مروحة. الأمر المهم هو رؤية روح واحدة تعمل في كل هذه الأمور، وهو تأكيد مطلق، لا يحتوي على ذرة من العدمية.

سأل راهب جوشو: "ماذا ستقول عندما آتي إليك بلا شيء؟"

قال جوشو: "ألقِها على الأرض".

احتج الراهب قائلاً: "لقد قلتُ إنني لا أملك شيئاً؛ فماذا عليّ أن أتخلى عنه؟"

"إذا كان الأمر كذلك، فخذه بعيداً"، كان هذا رد جوشو.

وهكذا كشف جوشو بوضوح عن عدم جدوى الفلسفة العدمية. للوصول إلى هدف الزن، يجب التخلص حتى من فكرة "عدم امتلاك أي شيء". يكشف بوذا عن نفسه عندما لا يتم تأكيده؛ أي أنه من أجل بوذا يجب التخلي عن بوذا. هذه هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى إدراك حقيقة الزن. طالما أن المرء يتحدث عن العدم أو عن المطلق، فهو بعيد كل البعد عن الزن، ويتراجع باستمرار عن الزن. حتى موطئ قدم الشونياتا (الفراغ) يجب أن يُنزع. الطريقة الوحيدة للنجاة هي إلقاء المرء نفسه مباشرة في هاوية لا قعر لها. وهذا، في الواقع، ليس بالأمر السهل.

يؤكد يينغو بجرأة (انظر الصفحة 16) أنه "لم يظهر أي بوذا" على الأرض قط؛ ولا يوجد شيء يمكن تقديمه كعقيدة مقدسة. لم يأتِ بوديدهارما، البطريرك الأول للزن، إلى الشرق قط، ولم ينقل أي عقيدة سرية من خلال العقل؛ فقط الناس في العالم، الذين لا يفهمون ما يعنيه كل هذا، يسعون إلى الحقيقة خارج أنفسهم. يا للأسف أن الشيء الذي يبحثون عنه بجدية يُداس تحت أقدامهم! هذا الأمر لا يمكن فهمه بحكمة جميع الحكماء. لكننا نرى الشيء ومع ذلك لا يُرى؛ نسمعه ومع ذلك لا يُسمع؛ نتحدث عنه ومع ذلك لا يُتحدث عنه؛ نعرفه ومع ذلك لا يُعرف. دعني أسأل، كيف يحدث ذلك؟"

هل هذا استجواب كما يبدو؟ أم أنها في الواقع عبارة إيجابية تصف موقفاً ذهنياً محدداً؟

لذلك، عندما ينكر الزن، فإنه ليس بالضرورة إنكارًا بالمعنى المنطقي. وينطبق الشيء نفسه على التأكيد. الفكرة هي أن الحقيقة النهائية للتجربة يجب ألا تخضع لأي قوانين فكرية مصطنعة أو تخطيطية، ولا لأي نقيض بين "نعم" و "لا"، ولا لأي صيغ جامدة ومحددة لنظرية المعرفة. من الواضح أن الزن يرتكب حماقات وتصرفات غير منطقية طوال الوقت؛ ولكن هذا ظاهري فقط. لا عجب إذن في فشلها في الإفلات من العواقب الطبيعية – سوء الفهم، والتفسيرات الخاطئة، والسخرية التي غالباً ما تكون خبيثة. إن تهمة العدمية ليست سوى واحدة من هذه التهم.

عندما سأل فيمالاكيرتي مانجوسري عن مذهب اللاثنائية كما يدركه البوديساتفا، أجاب مانجوسري: "كما أفهمه، يتحقق المذهب عندما ينظر المرء إلى كل الأشياء على أنها تتجاوز كل شكل من أشكال التعبير والبرهان، وعلى أنها تتجاوز المعرفة والجدال. هذا ما فهمته؛ هل لي أن أسأل ما هو فهمك أنت؟" وبناءً على ذلك، التزم فيمالاكيرتي الصمت التام. يبدو أن الاستجابة الصوفية - أي إغلاق الشفتين - هي الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرء من خلالها الخروج من الصعوبات التي غالباً ما يجد الزن نفسه متورطاً فيها، عندما يتعرض لضغوط شديدة للحصول على بيان. لذلك، يقول يينغو (يوان وو)، معلقاً على ما سبق:

أقول "نعم"، وليس هناك شيء يتعلق بهذا التأكيد؛ أقول "لا"، وليس هناك شيء يتعلق بهذا. أنا أقف فوق كلمتي "نعم" و"لا"، أنسى ما يُكتسب وما يُفقد. لا يوجد سوى حالة من النقاء المطلق، حالة من العري التام. أخبرني بما تركته وراءك وما تراه أمامك. قد يخرج الراهب من الاجتماع ويقول: "أرى قاعة بوذا وبوابة المعبد أمامي، وغرفة نومي وغرفة معيشتي خلفي". هل انفتحت عين هذا الرجل الداخلية؟ عندما تستطيع تمييزه، سأعترف حينها بأنك قد أجريت بالفعل مقابلة شخصية مع الحكماء القدماء."

عندما لا يجدي الصمت نفعاً، فهل نقول، على غرار يينغو، "باب السماء ينفتح في الأعلى، ونار لا تنطفئ تحترق في الأسفل"؟ هل هذا يوضح المعنى النهائي للزن، باعتباره غير مختنق بثنائية "نعم" و "لا"؟ في الواقع، طالما بقي آخر أثر للوعي بهذا وذاك، *meum et tuum*، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى إدراك أكمل للزن، وسيظهر حكماء القدماء على أنهم أولئك الذين لا نملك معهم أي شيء مشترك. سيظل الكنز الداخلي غير مكشوف إلى الأبد.

سأل راهب: "بحسب فيمالاكيرتي، ينبغي على من يرغب في الأرض الطاهرة أن يطهر عقله؛ ولكن ما هو العقل المطهر؟" أجاب معلم الزن: "عندما يكون العقل نقيًا تمامًا، يكون لديك عقل نقي، ويقال إن العقل نقي تمامًا عندما يكون فوق الطهارة والنجاسة. هل تريد أن تعرف كيف سيتم تحقيق ذلك؟ اجعل ذهنك خالياً تماماً في جميع الظروف، فحينها ستنعم بالنقاء. لكن عندما يتحقق هذا، لا

تفكر فيه إطلاقاً، وإلا ستصاب بالنجاسة. ومرة أخرى، عندما يتم بلوغ حالة عدم الطهارة هذه، فلا تفكر فيها، وستكون متحرراً من عدم الطهارة. هذا هو النقاء المطلق." الآن، إن النقاء المطلق هو تأكيد مطلق، لأنه يتجاوز النقاء وعدم النقاء، وفي الوقت نفسه يوحدهما في شكل أعلى من التركيب. لا يوجد نفي في هذا، ولا أي تناقض. يهدف الزن إلى تحقيق هذا الشكل من التوحيد في الحياة اليومية للفرد من الحقائق، وليس إلى التعامل مع الحياة كنوع من التمارين الميتافيزيقية. في هذا السياق، يجب النظر في جميع "الأسئلة والأجوبة" الخاصة بالزن (موندو). لا مجال للمجادلة، ولا للتلاعب بالألفاظ، ولا للمغالطات؛ إن الزن هو الشغل الشاغل في العالم.

دعوني أختتم هذا الفصل بالاقتباس[5] التالي من أحد أقدم كتابات الزن. جاء دوكو (تاو-كوانغ)، وهو فيلسوف بوذي وطالب في مدرسة فيجنابتيماترا (المثالية المطلقة)، إلى معلم زن وسأله:

"بأي طريقة ذهنية ينبغي للمرء أن يهذب نفسه في الحق؟"

قال معلم الزن: "لا يوجد عقل يمكن تشكيله، ولا توجد حقيقة يمكن تهذيبها".

"إذا لم يكن هناك عقل يُصاغ ولا حقيقة يُهذّب بها، فلماذا لديكم اجتماع يومي للرهبان الذين يدرسون الزن ويهذّبون أنفسهم في الحقيقة؟"

أجاب المعلم: "ليس لدي شبر واحد من المساحة لأوفرها، وأين يمكنني أن أقيم تجمعًا للرهبان؟ ليس لدي لسان، فكيف لي أن أنصح الآخرين بالقدوم إلي؟"

ثم صاح الفيلسوف قائلاً: "كيف يمكنك أن تكذب عليّ هكذا في وجهي؟"

"عندما لا أملك لساناً لأنصح به الآخرين، فهل من الممكن أن أكذب؟"

قال دوكو بيأس: "لا أستطيع فهم منطقك".

واختتم معلم الزن حديثه قائلاً: "وأنا أيضاً لا أفهم نفسي".

4
زن غير منطقي

اذهب خالي اليدين، وها هي المجرفة في يدي؛

أسير على قدمي، ومع ذلك فأنا أركب على ظهر ثور؛

عندما أعبر الجسر،

ها هو الماء لا يجري، لكن الجسر يجري.

هذا هو الغاثا الشهير لجيني (شان هوي، 497-469 م)، المعروف باسم فودايشي (فو تاي شي)، وهو يعطي بإيجاز وجهة النظر كما يتبناها أتباع الزن. على الرغم من أنها لا تستنفد بأي حال من الأحوال كل ما يعلمه الزن، إلا أنها تشير بشكل بياني إلى الطريق الذي يتجه إليه الزن. أولئك الذين يرغبون في اكتساب فهم فكري، إن أمكن، لحقيقة الزن، يجب عليهم أولاً أن يفهموا ما تعنيه هذه الأبيات حقًا.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر تناقضاً مع المنطق السليم من هذه الأسطر الأربعة. سيميل الناقد إلى وصف الزن بأنه سخيف ومربك ويتجاوز حدود التفكير العادي. لكن الزن غير مرن وسيعترض على أن ما يسمى بالطريقة المنطقية للنظر إلى الأشياء ليس نهائيًا، وأن السبب في عدم قدرتنا على الوصول إلى فهم شامل للحقيقة يرجع إلى تمسكنا غير المعقول بتفسير "منطقي" للأشياء. إذا أردنا حقاً الوصول إلى جوهر الحياة، فعلينا أن نتخلى عن قياساتنا المنطقية العزيزة، وأن نكتسب طريقة جديدة للملاحظة تمكننا من الهروب من طغيان المنطق ومن أحادية الجانب في عباراتنا اليومية. مهما بدا الأمر متناقضاً، فإن فلسفة الزن تصر على ضرورة حمل المجرفة في يديك الفارغتين، وأن ما يجري تحت قدميك ليس الماء بل الجسر.

لكن هذه ليست التصريحات غير المنطقية الوحيدة التي يدلي بها الزن. وهناك العديد من الأمثلة الأخرى المذهلة بنفس القدر. قد يعتبر البعض فلسفة الزن جنوناً أو حماقة لا رجعة فيها. في الواقع، ماذا سيقول قراؤنا عن مثل هذه الادعاءات؟

"عندما يشرب توم، يصبح ديك ثملاً."

"من هو معلم جميع البوذات، الماضي والحاضر والمستقبل؟" جون الطباخ."

"في الليلة الماضية صهل طائر خشبي وقطع رجل حجري ثمار الكبر."

"ها هي سحابة من الغبار تتصاعد من المحيط، ويُسمع هدير الأمواج فوق الأرض."

أحيانًا قد يطرح عليك زن أسئلة مثل ما يلي:

"إنها تمطر بغزارة الآن؛ كيف يمكنك إيقافها؟"

"عندما تصفق كلتا اليدين يصدر صوت: استمع إلى صوت يد واحدة."

"إذا كنت قد سمعت صوت يد واحدة، فهل يمكنك أن تجعلني أسمعه أنا أيضاً؟"

"عندما نرى من حولنا جبالاً شاهقة وبحاراً تملأ أماكن جوفاء، فلماذا نقرأ في السوترا المقدسة أن الدارما هي التماثل، وأنه لا يوجد شيء عالٍ ولا شيء منخفض؟"

هل فقد أتباع الزن صوابهم؟ أم أنهم يستسلمون للتضليل المتعمد؟ ألا تحمل كل هذه التصريحات أي معنى داخلي، ولا دلالة مفيدة سوى إحداث ارتباك في أذهاننا؟ ما هو جوهر الزن الذي يدفعنا حقاً إلى الفهم من خلال هذه التفاهات واللاعقلانية الظاهرة؟ الإجابة بسيطة. يريدنا الزن أن نكتسب وجهة نظر جديدة تماماً تمكننا من النظر في أسرار الحياة وخفايا الطبيعة. وذلك لأن الزن قد توصل إلى استنتاج قاطع مفاده أن عملية التفكير المنطقي العادية عاجزة عن إعطاء الرضا النهائي لأعمق احتياجاتنا الروحية.

نحن نعتقد عمومًا أن "أ هو أ" أمر مطلق، وأن الاقتراح "أ ليس أ" أو "أ هو ب" أمر لا يمكن تصوره. لم نتمكن قط من اختراق شروط هذا التفاهم؛ فقد كانت شروطاً بالغة الصعوبة. لكن الآن يعلن الزن أن الكلمات مجرد كلمات لا أكثر. عندما تتوقف الكلمات عن التوافق مع الحقائق، فقد حان الوقت لنتخلى عن الكلمات ونعود إلى الحقائق. طالما أن للمنطق قيمته العملية، فيجب استخدامه؛ ولكن عندما يفشل في العمل، أو عندما يحاول تجاوز حدوده المناسبة، يجب أن نصرخ، "قف!" منذ يقظة الوعي، سعينا لحل ألغاز الوجود وإرواء عطشنا للمنطق من خلال ثنائية "أ" و"ليس-أ"؛ أي من خلال تسمية الجسر جسراً، وجعل الماء يتدفق، والغبار يرتفع من الأرض؛ ولكن لخيبة أملنا الكبيرة، لم نتمكن أبداً من الحصول على راحة البال، والسعادة الكاملة، والفهم الشامل للحياة والعالم. لقد وصلنا، كما يُقال، إلى نهاية حيلنا. لم يكن بوسعنا اتخاذ أي خطوات أخرى من شأنها أن تقودنا إلى مجال أوسع من الواقع. لا يمكن التعبير عن أعمق آلام الروح بالكلمات، عندما فجأة! يغمر النور كياننا بأكمله. هذه هي بداية الزن. لأننا ندرك الآن أن "أ ليس أ" في نهاية المطاف، وأن المنطق أحادي الجانب، وأن اللاعقلانية المزعومة ليست في التحليل الأخير غير منطقية بالضرورة؛ فما هو غير عقلاني ظاهريًا له منطقه الخاص، والذي يتوافق مع الحالة الحقيقية للأشياء. "اذهب خالي اليدين، وها هي المجرفة في يدي!" وبهذا نصبح سعداء تماماً، لأن هذا التناقض الغريب هو ما كنا نبحث عنه طوال الوقت منذ فجر العقل. لم يكن بزوغ العقل يعني تأكيد العقل، بل تجاوزه لذاته. لا يتحقق معنى العبارة "أ هو أ" إلا عندما "أ ليس أ". أن تكون على طبيعتها لا يعني أن تكون على طبيعتها - هذا هو منطق الزن، وهو يرضي جميع تطلعاتنا.

"الزهرة ليست حمراء، والصفصاف ليس أخضر." يعتبر أتباع الزن هذا الأمر مُرضياً ومنعشاً للغاية. طالما اعتقدنا أن المنطق نهائي، سنبقى مقيدين، ولن نتمتع بحرية الروح، وستغيب عنا حقائق الحياة الحقيقية. أما الآن، فنحن نمتلك مفتاح الموقف برمته؛ نحن سادة الحقائق؛ لقد تخلت الكلمات عن سيطرتها علينا. إذا كنا مسرورين بتسمية الأشياء بمسمياتها، فلدينا الحق الكامل في القيام بذلك؛ فالأشياء لا يجب أن تبقى دائماً كما هي؛ وعلاوة على ذلك، فإن هذا، وفقاً لمعلم الزن، يعبر بشكل أدق عن حالة الواقع التي يرفض أن يقيد بالأسماء.

إن كسر استبداد الاسم والمنطق هو في الوقت نفسه تحرر روحي؛ لأن الروح لم تعد منقسمة على نفسها. باكتساب الحرية الفكرية، تصبح الروح في كامل سيطرتها على نفسها؛ فلا يعود الميلاد والموت يعذبانها؛ لأنه لا توجد مثل هذه الثنائيات في أي مكان؛ فنحن نعيش حتى من خلال الموت. حتى الآن كنا ننظر إلى الأشياء من منظورها المتناقض والمتمايز، واتخذنا موقفاً تجاهها وفقاً لهذا المنظور، أي موقفاً عدائياً إلى حد ما. لكن هذا الأمر قد شهد ثورة، فقد وصلنا أخيراً إلى النقطة التي يمكن فيها رؤية العالم، كما لو كان، من الداخل. لذلك، "أشجار الحديد في أوج ازدهارها"؛ و"في خضم المطر الغزير، لست مبتلة". وهكذا تصبح الروح كاملة، مثالية، ومفعمة بالنعيم.

يتعامل الزن مع الحقائق وليس مع تمثيلاتها المنطقية واللفظية والمتحيزة والضعيفة. البساطة المباشرة هي روح الزن؛ ومن هنا تأتي حيويتها وحريتها وأصالتها. تتحدث المسيحية كثيراً عن بساطة القلب، وكذلك تفعل الديانات الأخرى، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تكون بسيط القلب أو أن تكون مثل سيمون البسيط. في الزن، يعني ذلك عدم التورط في التفاصيل الفكرية الدقيقة، وعدم الانجراف وراء التفكير الفلسفي الذي غالباً ما يكون ساذجاً ومليئاً بالمغالطات. وهذا يعني، مرة أخرى، الاعتراف بالحقائق كحقائق ومعرفة أن الكلمات هي كلمات لا غير. كثيراً ما يقارن الزن العقل بمرآة خالية من البقع. وبالتالي، فإن البساطة، وفقًا للزن، تعني الحفاظ على هذه المرآة مشرقة ونقية وجاهزة دائمًا لعكس كل ما يأتي أمامها ببساطة وبشكل مطلق. ستكون النتيجة الاعتراف بأن المجرفة مجرفة وفي نفس الوقت عدم الاعتراف بأنها مجرفة. إن الاعتراف بالأول فقط هو رأي منطقي، ولا يوجد

زن حتى يتم قبول الثاني أيضًا جنبًا إلى جنب مع الأول. إن وجهة النظر الشائعة سطحية ومملة، بينما وجهة نظر الزن أصلية ومحفزة دائماً. في كل مرة يتم فيها التأكيد على الزن، تنبض الأشياء بالحياة؛ هناك فعل إبداعي.

يعتقد الزن أننا عبيدٌ للكلمات والمنطق أكثر من اللازم. طالما بقينا مقيدين على هذا النحو، سنكون بائسين وسنعاني معاناة لا توصف. لكن إذا أردنا أن نرى شيئًا يستحق المعرفة حقًا، شيئًا يؤدي إلى سعادتنا الروحية، فعلينا أن نسعى مرة واحدة وإلى الأبد لتحرير أنفسنا من جميع الشروط؛ يجب أن نرى ما إذا كان بإمكاننا اكتساب وجهة نظر جديدة يمكن من خلالها مسح العالم في كليته وفهم الحياة داخليًا. وقد دفع هذا الاعتبار المرء إلى الغوص عميقاً في هاوية "المجهول" والتمسك مباشرة بالروح وهي منخرطة في مهمة خلق العالم. لا منطق هنا، ولا فلسفة هنا؛ لا تحريف للحقائق لتناسب مقاييسنا المصطنعة هنا؛ لا قتل للطبيعة البشرية من أجل إخضاعها للتشريح الفكري؛ الروح الواحدة تقف وجهاً لوجه مع الروح الأخرى مثل مرآتين تواجهان بعضهما البعض، ولا يوجد شيء يفصل بين انعكاساتهما المتبادلة.

وبهذا المعنى، فإن الزن عملي للغاية. لا علاقة للأمر بالمفاهيم المجردة أو بدقائق الجدل. إنها تمسك بالمجرفة الموضوعة أمامك، وتمسك بها، وتعلن بجرأة: "أنا أمسك مجرفة، ومع ذلك فأنا لا أمسكها". لم يتم التطرق إلى الله أو إلى النفس؛ ولا يوجد حديث عن اللانهائي أو الحياة بعد الموت. إن التعامل مع المجرفة البسيطة، وهو أمر عادي للغاية أن نراه فينا، يكشف كل الأسرار التي نواجهها في الحياة. ولا يُراد أكثر من ذلك. لماذا؟ لأن الزن قد أوضح الآن نهجاً جديداً لفهم حقيقة الأشياء. عندما يتم فهم زهرة متواضعة في جدار متصدع، يتم فهم الكون بأكمله وكل الأشياء التي فيه وخارجه. في الزن، المجرفة هي مفتاح اللغز بأكمله. يا له من أمر منعش ومليء بالحياة - الطريقة التي يتعامل بها الزن مع أعقد أسئلة الفلسفة!

قال أحد الآباء المسيحيين البارزين في أوائل العصور الوسطى ذات مرة: "يا أرسطو المسكين!" يا من اكتشفت للهراطقة فن الجدل، وفن البناء والهدم، وفن مناقشة كل شيء دون تحقيق أي شيء!" يا له من ضجيج على لا شيء! انظر كيف يتناقض الفلاسفة من جميع العصور مع بعضهم البعض بعد أن أنفقوا كل براعتهم المنطقية وإبداعهم التحليلي على ما يسمى بمشاكل العلم والمعرفة. لا عجب أن نفس الرجل الحكيم القديم، الذي أراد وضع حد نهائي لمثل هذه المناقشات غير المجدية، قد ألقى بجرأة القنبلة التالية مباشرة في وسط هؤلاء البناة الرمليين: "*Certum est quia impossible est*" (إنه أمر مؤكد لأنه مستحيل.) ؛ أو، بشكل أكثر منطقية، "*Credo quia absurdum est*" (أعتقد أن هذا أمر سخيف.). أعتقد ذلك لأنه غير منطقي؛ أليس هذا تأكيداً قاطعاً على الزن؟

أخرج أحد المعلمين القدامى عصاه أمام مجموعة من الرهبان وقال: "أيها الرهبان، هل ترون هذا؟" إذا رأيتوها، فماذا ترون؟ هل تقولوا: "إنها عصا"؟ إذا فعلتم ذلك فأنتم أناس عاديون، وليس لديكم حسٌّ بالزن. لكن إذا قلتم: "لا نرى أي عصا"، فسأقول: "ها أنا ذا أمسك واحدة، فكيف تنكرون ذلك؟" لا مجال للتفاهة في الزن. إلى أن تُفتح لك عين ثالثة لتنظر إلى أعمق أسرار الأشياء، لا يمكنك أن تكون بصحبة الحكماء القدماء. ما هذه العين الثالثة التي ترى العصا ومع ذلك لا تراها؟ من أين يأتي هذا الفهم غير المنطقي للأمور؟

يقول الزن: "لقد بشر بوذا لمدة تسعة وأربعين عاماً، ومع ذلك فإن "لسانه العريض" *(تانوجيهفا)* لم يتحرك ولو لمرة واحدة". هل يستطيع المرء أن يتحدث دون أن يحرك لسانه؟ لماذا هذا العبث؟ والتفسير الذي قدمه جينشا (هسوان شا، 831-908) هو كالتالي: "كل أولئك الذين يميلون إلى التقوى يزعمون أنهم يباركون الآخرين بكل طريقة ممكنة؛ ولكن عندما يصادفون ثلاثة أنواع من المرضى، كيف سيعاملونهم؟" لا يستطيع الأعمى أن يرى حتى لو تم إخراج عصا أو مطرقة؛ ولا يستطيع الأصم أن يسمع مهما كانت الموعظة جيدة؛ ولا يستطيع الأبكم أن يتكلم مهما تم حثه على ذلك. لكن إذا لم يكن بالإمكان بأي حال من الأحوال مساعدة هؤلاء الأشخاص الذين يعانون معاناة شديدة، فما الفائدة المرجوة من البوذية؟ لا يبدو أن التفسير يفسر أي شيء على الإطلاق. لعل تعليق بوتسوجين (فو-ين) يلقي مزيداً من الضوء على الموضوع. فقال لتلاميذه: "لكل واحد منكم زوج من الآذان؛ فماذا سمعتم بها؟" لكل واحد منكم لسان واحد؛ فماذا بشرتم به؟ في الحقيقة، لم تتكلموا قط، ولم تسمعوا قط، ولم تروا قط. ومن أين إذن تأتي كل هذه الأشكال والأصوات والروائح والأذواق؟ (بمعنى آخر، من أين أتى هذا العالم؟)

إذا كانت هذه الملاحظة لا تزال تتركنا حيث كنا من قبل، فلنرى ما إذا كان بإمكان أومون (يون مين، توفي عام 966)، أحد أعظم أساتذة الزن الذين عاشوا على الإطلاق، أن يساعدنا. جاء راهب إلى أومون وطلب من جينشا أن يوضح له ما ذكره جينشا أعلاه. أمره أمون أولاً أن يحييه بالطريقة الرسمية. عندما نهض الراهب بعد أن سجد على الأرض، دفعه أومون بعصاه، فتراجع الراهب إلى الوراء. قال المعلم: "إذن أنت لست أعمى". ثم طلب من الراهب أن يتقدم، وهو ما فعله. قال المعلم: "إذن أنت لست أصم". وأخيراً سأل الراهب عما إذا كان يفهم ما يدور حوله كل هذا، فأجاب الأخير: "لا يا سيدي". ثم اختتم أمون قائلاً: "أنت لست أبكماً إذن".

مع كل هذه التعليقات والإيماءات، هل ما زلنا نسافر عبر أرض مجهولة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا سبيل آخر سوى العودة إلى البداية وتكرار المقطع الشعري:

اذهب خالي اليدين، وها هي المجرفة في يدي؛

أسير على قدمي، ومع ذلك فأنا أركب على ظهر ثور؛

بضع كلمات أخرى: السبب وراء كون الزن شديد اللهجة في هجومه على المنطق، ولماذا يتناول هذا العمل أولاً الجانب غير المنطقي من الزن، هو أن المنطق قد دخل الحياة بشكل واسع لدرجة تجعل معظمنا يستنتج أن المنطق هو الحياة وبدونه لا معنى للحياة. لقد تم تحديد خريطة الحياة بشكل واضح ودقيق للغاية من خلال المنطق بحيث أن ما علينا فعله هو ببساطة اتباعها، وأنه لا ينبغي لنا أن نفكر في انتهاك قوانين الفكر، التي هي نهائية. لقد أصبح هذا المنظور العام للحياة شائعاً بين معظم الناس، مع أنني يجب أن أقول إنهم في الواقع ينتهكون باستمرار ما يعتقدون أنه لا يجوز انتهاكه. بمعنى آخر، إنهم "يمسكون بالمجرفة ومع ذلك لا يمسكون بها"، فهم يجمعون مجموع اثنين واثنين، أحيانًا ثلاثة، وأحيانًا خمسة؛ لكنهم ليسوا واعين لهذه الحقيقة ويتخيلون أن حياتهم منظمة منطقيًا أو رياضيًا. يرغب الزن في اقتحام هذه القلعة المقلوبة رأساً على عقب وإظهار أننا نعيش نفسياً أو بيولوجياً وليس منطقياً.

في المنطق أثر من الجهد والألم؛ المنطق واعٍ لذاته. وكذلك الأخلاق، التي هي تطبيق المنطق على حقائق الحياة. يقوم الرجل الأخلاقي بأعمال خدمة تستحق الثناء، ولكنه يدركها طوال الوقت، وعلاوة على ذلك، قد يفكر في كثير من الأحيان في مكافأة مستقبلية. لذا ينبغي أن نقول إن عقله ملوث وغير نقي على الإطلاق، مهما كانت أفعاله جيدة موضوعياً أو اجتماعياً. يكره الزن هذا الأمر. الحياة فن، ومثل الفن المثالي ينبغي أن تكون منزوعة الذات؛ فلا ينبغي أن يكون هناك أي أثر للجهد أو الشعور المؤلم. بحسب الزن، ينبغي أن تُعاش الحياة كما يطير الطائر في الهواء أو كما تسبح السمكة في الماء. بمجرد ظهور علامات على التطور، يكون الإنسان محكوماً عليه بالهلاك، ولم يعد كائناً حراً. أنت لا تعيش كما ينبغي أن تعيش، أنت تعاني تحت وطأة الظروف؛ أنت تشعر بنوع من القيود، وتفقد استقلاليتك. يهدف الزن إلى الحفاظ على حيويتك، وحريتك الفطرية، وقبل كل شيء اكتمال كيانك. بمعنى آخر، يريد الزن أن يعيش من الداخل. ليس المقصود أن نكون مقيدين بالقواعد، بل أن نخلق قواعدنا الخاصة - هذا هو نوع الحياة التي يحاول الزن أن يجعلنا نعيشها. ومن هنا تأتي تصريحاته غير المنطقية، أو بالأحرى تصريحاته فوق المنطقية.

في إحدى خطبه، أعلن أحد أساتذة[1] الزن: "يقال إن السوترا التي بشر بها بوذا خلال حياته تبلغ خمسة آلاف وثمانية وأربعين مجلداً؛ وهي تشمل عقيدة الفراغ وعقيدة الوجود؛ وهناك تعاليم عن الإدراك الفوري والتطور التدريجي. أليس هذا تأكيداً؟

"لكن، وفقًا ليوكا،[2] "لا توجد كائنات واعية، ولا يوجد بوذا؛ الحكماء الذين يبلغ عددهم عدد رمال نهر الغانج ليسوا سوى فقاعات في البحر؛ حكماء الماضي وبارزيه مثل ومضات البرق." أليس هذا نفيًا؟

"يا تلاميذي، إذا قلتم إن هناك، فإنكم تخالفون يوكا؛ وإذا قلتم إنه لا يوجد، فإنكم تعارضون معلمنا القديم بوذا. لو كان معنا، فكيف كان سيتجاوز هذه المعضلة؟ لكن إذا كنت تعرف بالضبط أين نحن، فسوف نجري مقابلة مع بوذا في الصباح ونحييه في المساء. أما إذا اعترفتم بجهلكم، فسأدعكم تروا السر. عندما أقول أنه لا يوجد، فهذا لا يعني بالضرورة النفي؛ وعندما أقول أنه يوجد، فهذا أيضاً لا يعني التأكيد. اتجه شرقاً وانظر إلى الأرض الغربية؛ وتوجه جنوباً وستجد نجم الشمال يشير إلى هناك!

5
الزن تأكيد أعلى

قام شوزان (شوشان، 926-992) ذات مرة برفع عصاه[1] أمام مجموعة من تلاميذه وأعلن: "سمّوا هذه العصا فأنتم تؤكدون؛ سمّوها ليست عصا فأنتم تنفون". الآن، لا تؤكد ولا تنفي، فماذا تسمي ذلك؟ تكلموا، تكلموا! فخرج أحد التلاميذ من بين الصفوف، وأخذ العصا من المعلم، وكسرها إلى نصفين، وصاح قائلاً: "ما هذا؟"

بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على التعامل مع المفاهيم المجردة والمواضيع الراقية، قد يبدو هذا الأمر تافهاً تماماً، فما علاقة هؤلاء الفلاسفة المتعمقين في العلم بقطعة خيزران تافهة؟ ما شأن هؤلاء العلماء المنغمسين في التأمل العميق، سواء أطلق عليه اسم عصا الخيزران أم لا، وسواء انكسر أم أُلقي على الأرض؟ لكن بالنسبة لأتباع الزن، فإن هذا التصريح من شوزان يحمل في طياته معاني كثيرة. دعونا ندرك حقًا حالة ذهنه عندما طرح هذا السؤال، وبذلك نكون قد دخلنا أول مدخل لنا إلى عالم الزن. كان هناك العديد من أساتذة الزن الذين اتبعوا مثال شوزان، وقاموا، وهم يعرضون عصيهم الخيزرانية، بمطالبة تلاميذهم بإجابة مرضية.

وبعبارة مجردة، والتي ربما تكون أكثر قبولاً لدى معظم القراء، فإن الفكرة هي الوصول إلى تأكيد أعلى من النقيض المنطقي للتأكيد والإنكار. في العادة، لا نجرؤ على تجاوز النقيض لمجرد أننا نتخيل أننا لا نستطيع. لقد أرعبنا المنطق لدرجة أننا ننكمش ونرتجف كلما ذُكر اسمه. إن العقل الذي خُلق للعمل، منذ يقظة الفكر، في ظل أشد انضباط الثنائية المنطقية، يرفض التخلص من قبضته الوهمية. لم يخطر ببالنا قط أنه من الممكن لنا الهروب من هذا القيد الفكري الذي فرضناه على أنفسنا؛ في الواقع، ما لم نتجاوز نقيض "نعم" و"لا"، فلن نتمكن أبدًا من أن نأمل في عيش حياة حقيقية من الحرية. والروح كانت دائماً تتوق إليه، ناسية أنه ليس من الصعب الوصول إلى شكل أعلى من التأكيد، حيث لا توجد فروق متناقضة بين النفي والتأكيد. بفضل الزن تم التوصل إلى هذا التأكيد الأعلى في النهاية عن طريق عصا من الخيزران في يد معلم الزن.

من البديهي أن هذه العصا التي تم طرحها يمكن أن تكون أيًا من الأشياء العديدة الموجودة في هذا العالم من التفاصيل. في هذه العصا نجد كل الوجودات الممكنة، وكذلك كل تجاربنا الممكنة مركزة. عندما نعرفها - هذه القطعة البسيطة من الخيزران - نعرف القصة كاملة بطريقة شاملة للغاية. بحملها في يدي، أحمل الكون كله. أي تصريح أدلي به حول هذا الموضوع يتكون أيضاً من كل شيء آخر. عند الحصول على نقطة واحدة، تُضاف إليها جميع النقاط الأخرى. كما تعلم فلسفة أفاتامساكا (كيجون): "الواحد يحتضن الكل، والكل يندمج في الواحد". الواحد هو الكل، والكل هو الواحد. الواحد يملأ الكل، والكل موجود في الواحد. هذا ينطبق على كل شيء، وعلى كل وجود. لكن انتبه، لا يوجد هنا أي مذهب للواحدية، ولا نظرية الهوية. فعندما يُمد إليك عصا الخيزران، فإنها مجرد عصا، لا يوجد كون متجسد فيها، لا الكل، لا أحد؛ حتى عندما يُقال "أنا أرى العصا" أو "ها هي عصا"، فإننا جميعًا نخطئ الهدف. لم يعد الزن موجوداً، ناهيك عن فلسفة أفاتامساكا.

لقد تحدثت عن عدم منطقية الزن في أحد الفصول السابقة؛ وسيعرف القارئ الآن لماذا يقف الزن في معارضة للمنطق، سواء كان رسميًا أو غير رسمي. ليس الهدف من الزن أن يبدو غير منطقي في حد ذاته، بل أن يجعل الناس يعرفون أن الاتساق المنطقي ليس نهائياً، وأن هناك بياناً متعالياً معيناً لا يمكن تحقيقه بمجرد الذكاء الفكري. إن النمط الفكري المتمثل في "نعم" و "لا" يكون ملائماً تماماً عندما تسير الأمور في مسارها الطبيعي؛ ولكن بمجرد أن يطرح السؤال النهائي للحياة، يفشل العقل في الإجابة عليه بشكل مُرضٍ. عندما نقول "نعم"، فإننا نؤكد، ومن خلال التأكيد نحد من أنفسنا. عندما نقول "لا"، فإننا ننكر، والإنكار هو الإقصاء. إن الإقصاء والتقييد، وهما في النهاية شيء واحد، يقتلان النفس؛ أليست حياة النفس هي التي تعيش في حرية كاملة ووحدة كاملة؟ لا حرية ولا وحدة في الإقصاء أو في التقييد. يدرك زن هذا الأمر جيداً. وبناءً على متطلبات حياتنا الداخلية، فإن الزن يأخذنا إلى عالم مطلق لا توجد فيه أي تناقضات من أي نوع.

ومع ذلك، يجب أن نتذكر أننا نعيش في تأكيد وليس في نفي، لأن الحياة هي تأكيد بحد ذاتها؛ ويجب ألا يكون هذا التأكيد مصحوبًا أو مشروطًا بالنفي؛ فمثل هذا التأكيد نسبي وليس مطلقًا على الإطلاق. مع هذا التأكيد، تفقد الحياة أصالتها الإبداعية وتتحول إلى عملية ميكانيكية تطحن لا ينتج عنها سوى لحم وعظام بلا روح. لكي تكون حراً، يجب أن تكون الحياة تأكيداً مطلقاً. يجب أن تتجاوز جميع الشروط والقيود والتناقضات الممكنة التي تعيق نشاطها الحر. عندما مدّ شوزان عصاه الخيزرانية، كان ما يريده من تلاميذه هو أن يفهموا ويدركوا هذا الشكل من التأكيد المطلق. أي إجابة تكون مرضية إذا نبعت من أعماق النفس، لأن مثل هذه الإجابة هي دائماً تأكيد مطلق. لذلك، فإن الزن لا يعني مجرد الهروب من السجن الفكري، والذي ينتهي أحيانًا إلى التهور المطلق. هناك شيء في الزن يحررنا من القيود وفي الوقت نفسه يمنحنا موطئ قدم ثابتًا، وهو مع ذلك ليس موطئ قدم بالمعنى النسبي. يسعى معلم الزن إلى نزع كل موطئ قدم من التلميذ الذي كان لديه منذ ظهوره الأول على الأرض، ثم تزويده بموطئ قدم لا يمثل في الحقيقة أي موطئ قدم. إذا لم يكن عصا الخيزران مناسبًا للغرض، فسيتم استخدام أي شيء متاح. العدمية ليست زن، لأن عصا الخيزران هذه أو أي شيء آخر لا يمكن التخلص منه كما يمكن التخلص من الكلمات والمنطق. هذه هي النقطة التي يجب ألا نغفلها في دراسة الزن.

سيتم تقديم بعض الأمثلة للتوضيح. كان توكو-سان (تيه-شان، 780-865) يلوح بعصاه الكبيرة كلما خرج للوعظ في القاعة، قائلاً: "إذا نطقت بكلمة واحدة فسأضربك ثلاثين ضربة؛ وإذا لم تنطق بكلمة واحدة، فسأضربك ثلاثين ضربة على رأسك". هذا كل ما كان سيقوله لتلاميذه. لا حديث مطول عن الدين أو الأخلاق؛ لا خطاب مجرد، ولا ميتافيزيقا معقدة؛ بل على العكس، ركوب خيل عنيف. بالنسبة لأولئك الذين يربطون الدين بالجبن والتقوى الزائفة، لا بد أن يبدو معلم الزن شخصًا غير مهذب بشكل فظيع. لكن عندما يتم التعامل مع الحقائق كحقائق، دون أي وسيط، فإنها عادة ما تكون أشياء فظة. يجب علينا مواجهتها مباشرة، لأنه لن يكون لأي قدر من التغاضي أو التهرب أي فائدة. يُفتح العين الداخلية تحت وابل من ثلاثين ضربة. لا بد أن ينبثق تأكيد مطلق من فوهة الحياة نفسها الملتهبة.

سأل هوين (فا-ين، توفي عام 1104)، من غوسوزان (وو-تسو-شان)، ذات مرة: "عندما تقابل رجلاً حكيماً في طريقك، إذا لم تتحدث إليه أو بقيت صامتاً، فكيف ستجري معه مقابلة؟" الهدف هو أن يدرك المرء ما أسميه تأكيداً مطلقاً. ليس الهدف مجرد الهروب من نقيض "نعم" و "لا"، بل إيجاد طريقة إيجابية يتم من خلالها تحقيق الانسجام التام بين المتناقضات - هذا ما يهدف إليه هذا السؤال. أشار أحد المعلمين ذات مرة إلى جمرة مشتعلة وقال لتلاميذه: "أنا أسمي هذا ناراً، لكنكم لا تسمونها كذلك؛ أخبروني ما هي". الأمر نفسه هنا مرة أخرى. يهدف المعلم إلى تحرير عقول تلاميذه من قيود المنطق، الذي كان دائماً نقمة على البشرية.

لا ينبغي اعتبار هذا لغزاً يهدف إلى إرباكك. لا يوجد شيء عبثي في الأمر؛ إذا فشلت في الإجابة، فسوف تواجه العواقب. هل ستظل مقيدًا إلى الأبد بقوانين فكرك الخاصة، أم ستكون حرًا تمامًا في تأكيد على الحياة التي لا تعرف بداية ولا نهاية؟ لا يمكنك التردد. إما أن تستوعب الحقيقة أو تدعها تفلت منك - لا يوجد خيار بين هذين الأمرين. تتلخص طريقة الزن في الانضباط عموماً في وضع المرء في مأزق، يجب عليه أن يبتكر طريقة للهروب منه، ليس من خلال المنطق في الواقع، ولكن من خلال عقل من مستوى أعلى.

درس ياكوسان (يوي شان، 751-834) الزن أولاً على يد سيكيتو (شي تو، 700-790) وسأله: "فيما يتعلق بالأقسام الثلاثة والاثني عشر للبوذية، فأنا لست جاهلاً بها تماماً، ولكن ليس لدي أي معرفة على الإطلاق بمذهب الزن كما يُدرَّس في الجنوب.[2] ويؤكد أتباعه أنه مذهب الإشارة مباشرة إلى العقل وبلوغ البوذية من خلال إدراك طبيعته الحقيقية. إذا كان الأمر كذلك، فكيف لي أن أستنير؟ أجاب سيكيتو: "لا ينتصر التأكيد، ولا ينتصر الإنكار". عندما لا يكون أي منهما مباشراً، فماذا ستقول؟ ظل ياكوسان متأملاً، لأنه لم يفهم معنى السؤال. ثم أخبره المعلم أن يذهب إلى بادايشي (ما تاي شي) من تشيانغ شي، الذي قد يكون قادراً على فتح عين الراهب على حقيقة الزن. وبعد ذلك، ذهب الراهب ياكوسان إلى المعلم الجديد بنفس المشكلة. وكان جوابه: "أحياناً أجعل المرء يرفع حاجبيه أو يغمز، بينما في أحيان أخرى يكون القيام بذلك خاطئاً تماماً". أدرك ياكوسان على الفور المغزى النهائي لهذه الملاحظة. عندما سأل باسو: "ما الذي يدفعك إلى هذا؟" أجاب ياكوسان: "عندما كنت مع سيكيتو، كان الأمر أشبه ببعوضة تلدغ ثوراً حديدياً". هل كان هذا سبباً أو تفسيراً مُرضياً؟ يا له من أمر غريب هذا التأكيد المزعوم!

سأل ريكو (لي كو)، وهو مسؤول حكومي رفيع المستوى في سلالة تانغ، نانسن (نان تشوان): "في زمن بعيد، كان رجل يحتفظ بإوزة في زجاجة. لقد كبرت وكبرت حتى لم تعد قادرة على الخروج من الزجاجة؛ لم يكن يريد كسر الزجاجة، ولم يكن يرغب في إيذاء الإوزة؛ كيف ستخرجها أنت؟" نادى المعلم قائلاً: "يا ضابط!"، فأجابت ريكو على الفور: "نعم!" "ها قد خرجت!" هكذا استطاع نانسن أن يُخرج الإوزة من سجنها. هل حصل ريكو على تأكيده الأعلى؟

قال كيوجين (شيانغ ين) [3]: "لنفترض أن رجلاً يتسلق شجرة يمسك بغصن بأسنانه، وهكذا يتم تعليق جسده بالكامل. يداه لا تمسك بأي شيء وقدميه مرفوعتان عن الأرض. ثم يأتي رجل آخر ويسأل الرجل على الشجرة عن المبدأ الأساسي للبوذية. إذا لم يُجب الرجل على الشجرة، فهو يتجاهل السائل؛ أما إذا حاول الإجابة فسيفقد حياته؛ فكيف له أن يخرج من مأزقه؟ على الرغم من أن هذا يُطرح في شكل حكاية رمزية، إلا أن مضمونه يشبه ما ذُكر سابقاً. إذا فتحت فمك محاولاً التأكيد أو النفي، فأنت تائه. لم يعد هناك شيء اسمه "زن". لكن مجرد التزام الصمت لن يجدي نفعاً أيضاً. حجرٌ ملقى هناك صامت، وزهرةٌ متفتحة تحت النافذة صامتة، لكن لا أحد منهما يفهم الزن. لا بد من وجود طريقة معينة يصبح فيها الصمت والبلاغة متطابقين، أي عندما يتم توحيد النفي والتأكيد في شكل أعلى من البيان. عندما نصل إلى هذا، نعرف الزن.

ما هي إذن العبارة الإيجابية المطلقة؟ عندما أراد هياكوجو (باي تشانغ، 720-814) أن يقرر من سيكون الرئيس التالي لدير تاي كوي شان، استدعى اثنين من كبار تلاميذه، وأخرج إبريقًا، وهو ما يحمله الراهب البوذي عادةً، وقال لهما: "لا تسميه إبريقًا، بل أخبراني ما هو". أجاب الأول: "لا يمكن تسميتها قطعة خشب". لم يعتبر رئيس الدير الرد مناسباً تماماً؛ عندئذ تقدم الثاني، ودفع الإبريق برفق إلى الأسفل، وغادر الغرفة بهدوء دون أن يدلي بأي ملاحظة. تم اختياره ليكون رئيس الدير الجديد، والذي أصبح فيما بعد "معلم لألف وخمسمائة راهب". هل كان دفع الابريق بمثابة تأكيد قاطع؟ يمكنك تكرار هذا الفعل، لكنك لن تُعتبر بالضرورة متفهمًا للزن.

يكره الزن التكرار أو التقليد من أي نوع، لأنه يقتل. وللسبب نفسه، لا يشرح الزن أبدًا، بل يؤكد فقط. الحياة حقيقة واقعة، ولا حاجة لأي تفسير أو جدوى منه. إن التفسير هو اعتذار، ولماذا نعتذر لمجرد أننا نعيش؟ أن تعيش - أليس هذا كافياً؟ فلنعيش إذن، ولنؤكد! وهنا يكمن الزن بكل نقائه وبكل عريه أيضاً.

في دير نانسن، تشاجر رهبان الجناح الشرقي مع رهبان الجناح الغربي بسبب امتلاك قطة. أمسك المعلم بالحيوان ورفعه أمام الرهبان المتنازعين، وقال: "إذا استطاع أي منكم أن يقول شيئاً لإنقاذ الحيوان المسكين، فسأطلقه". وبما أنه لم يتقدم أحد لينطق بكلمة تأكيد، قام نانسن بقطع الشيء محل النزاع إلى نصفين، واضعاً بذلك حداً نهائياً للجدال غير المثمر حول "ملكي" و"ملكك". وفي وقت لاحق، عاد جوشو (تشاو تشو) من نزهة، وعرض نانسن القضية عليه، وسأله عما كان سيفعله لإنقاذ الحيوان. خلع جوشو صندله المصنوع من القش دون مزيد من الكلام، ووضعه على رأسه، ثم خرج. عند رؤية ذلك، قال نانسن: "لو كنت هنا في ذلك الوقت لكنت أنقذت القطة".

ماذا يعني كل هذا؟ لماذا تم التضحية بمخلوق بريء مسكين؟ ما علاقة وضع جوشو لنعليه فوق رأسه بالشجار؟ هل كان نانسن يقصد أن يكون غير متدين وغير إنساني بقتله كائناً حياً؟ هل كان جوشو أحمق حقاً ليقوم بمثل هذه الخدعة الغريبة؟ ثم "الإنكار المطلق" و "التأكيد المطلق" - هل هذان مصطلحان حقًا؟ هناك شيء من الجدية المخيفة في كلا هذين الممثلين، جوشو ونانسن. ما لم يتم إدراك هذا، فإن الزن، في الواقع، مجرد مهزلة. بالتأكيد لم تُقتل القطة عبثاً. إذا كان لأي من الحيوانات الدنيا أن يصل إلى مرتبة البوذية، فإن هذه القطة هي بالتأكيد تلك التي قُدِّر لها ذلك.

وقد سأل أحد الرهبان جوشو نفسه ذات مرة: "كل الأشياء قابلة للاختزال إلى الواحد؛ فأين هذا الواحد الذي يمكن اختزاله؟" وكان رد المعلم: "عندما كنت في منطقة تسين، صنعت رداء راهب يزن سبعة شين". هذا أحد أشهر الأقوال التي نطق بها أحد أساتذة الزن على الإطلاق. قد يتساءل المرء: "هل هذا ما يُقصد بالتأكيد المطلق؟" ما هي الصلة المحتملة بين رداء الراهب ووحدة الأشياء؟ دعني أسأل: أنت تؤمن بأن كل شيء موجود في الله، ولكن أين مسكن الله؟ هل هو موجود في رداء جوشو ذي الشين السبعة؟ عندما تقول أن الله موجود هنا، فلا يمكن أن يكون هناك بعد الآن؛ ولكن لا يمكنك أن تقول إنه غير موجود في أي مكان،

لأنه بحسب تعريفك، فإن الله موجود في كل مكان. طالما أننا مقيدون بالعقل، لا يمكننا مقابلة الله كما هو؛ فنحن نبحث عنه في كل مكان، لكنه دائماً ما يبتعد عنا. يرغب العقل في تحديد موقعه، لكن من طبيعته أنه لا يمكن تقييده. هذه معضلة عظيمة يجب طرحها على العقل، وهي معضلة لا مفر منها. كيف سنجد المخرج؟ إن رداء جوشو الكهنوتي ليس رداءنا؛ ولا يمكن اتباع طريقته في الحل بشكل أعمى، لأن على كل واحد منا أن يشق طريقه الخاص. إذا جاءك شخص ما بنفس السؤال، فكيف ستجيب عليه؟ ألا نواجه نفس المشكلة في كل منعطف من منعطفات الحياة؟ ألا يُعدّ إيجاد حل فوري وعملي أمرًا ملحًا دائمًا؟

كانت إجابة غوتي (تشو-تشيه)[4] المفضلة على أي سؤال يُطرح عليه هي رفع أحد أصابعه. كان خادمه الصغير يقلده، وكلما سأله الغرباء عن تعاليم المعلم كان يرفع إصبعه. عندما علم المعلم بذلك، استدعى الصبي ذات يوم وقطع إصبعه. حاول الصبي، وهو يشعر بالخوف والألم، الهرب، لكن تم استدعاؤه عندما رفع المعلم إصبعه. حاول الصبي تقليد المعلم، كما كانت عادته، لكن الإصبع لم يعد موجوداً، ثم فجأة أدرك أهمية كل ذلك. النسخ عبودية. لا يجب اتباع الحرف، بل يجب فهم الروح فقط. التأكيدات العليا تسكن في الروح. وأين الروح؟ ابحث عنها في تجربتك اليومية، وستجد فيها وفرة من الأدلة على كل ما تحتاجه.

قرأنا في أحد السوترا: "كانت هناك امرأة عجوز في الجانب الشرقي من المدينة ولدت عندما ولد بوذا، وعاشوا في نفس المكان طوال حياتهم. لم ترغب العجوز في رؤية بوذا؛ فإذا اقترب منها حاولت بكل الطرق تجنبه، فكانت تركض إيابا وذهاباً، وتختبئ هنا وهناك. لكن في أحد الأيام، عندما وجدت أنه من المستحيل الهروب منه، غطت وجهها بيديها، وإذا ببوذا يظهر بين كل إصبع من أصابعها العشرة. دعني أسأل، "من هذه السيدة العجوز؟"

التأكيد المطلق هو البوذا؛ لا يمكنك الهروب منه، لأنه يواجهك في كل منعطف؛ ولكنك بطريقة ما لا تدركه حتى تفقد إصبعك، مثل الصبي الصغير لغوتي. إنه لأمر غريب، لكن الحقيقة تبقى أننا مثل "أولئك الذين يموتون جوعاً وهم جالسون بجانب كيس الأرز"، أو بالأحرى مثل "أولئك الذين يموتون عطشاً وهم واقفون غارقين تماماً في وسط النهر". يذهب أحد المعلمين خطوة أبعد ويقول: "نحن الأرز نفسه والماء نفسه". إذا كان الأمر كذلك، فلا يمكننا أن نقول بصدق أننا جائعون أو عطشى، لأنه منذ البداية لم يكن ينقصنا شيء. جاء راهب إلى سوزان (تساوشان، 840-901) يطلب منه أن يكون كريماً، لأنه كان فقيراً جداً. صاح سوزان قائلاً: "يا سيدي الجليل!" فأجاب الراهب على الفور. ثم قال سوزان: "لقد شربت بالفعل ثلاث أوعية كبيرة من مشروب تشو (الخمر) الغني المصنوع منزلياً، ومع ذلك تصر على أنه لم يبلل شفتيك قط!" ربما نكون جميعاً مثل هذا الراهب الفقير المترف؛ عندما نكون ممتلئين تماماً، لا ندرك ذلك أبداً.

وختاماً، إليكم بيان آخر من بين البيانات العديدة التي تزخر بها أدبيات الزن، والتي تؤكد بشكل قاطع حقيقة الزن. سأل سيهي (تسينغ بينغ، 845–919) سويبي (تسوي-وي):[5]

"ما هو المبدأ الأساسي للبوذية؟"

قال سويبي: "انتظر، عندما لا يكون هناك أحد في الجوار سأخبرك".

وبعد فترة، كرر سيهي الطلب قائلاً: "لا يوجد أحد هنا الآن؛ أرجو أن تنيرني".

نزل سويبي من كرسيه، وأخذ السائل القلق إلى بستان الخيزران، لكنه لم يقل شيئاً. عندما ألح الأخير على الرد، همس سويبي قائلاً: "ما أطول هذه الخيزران!" ويا له من قصرٍ أولئك الذين هناك!

6

الزن العملي

لقد تمت مناقشة الزن حتى الآن من وجهة نظر فكرية، وذلك لإثبات أنه من المستحيل فهم الزن من خلال هذه القناة؛ في الواقع، لا ينصف الزن التعامل معه بهذه الطريقة الفلسفية. يكره الزن الوسائل، حتى الوسائل الفكرية؛ فهو في المقام الأول وفي النهاية نظام وتجربة، لا يعتمد على أي تفسير؛ لأن التفسير مضيعة للوقت والطاقة ولا يصل إلى صلب الموضوع أبدًا؛ كل ما تحصل عليه منه هو سوء فهم ونظرة مشوهة للأمر. عندما يريد منك الزن أن تتذوق حلاوة السكر، فإنه سيضع المادة المطلوبة مباشرة في فمك ولن تُقال أي كلمات أخرى. سيقول أتباع الزن: "لا بد من استخدام الإصبع للإشارة إلى القمر، ولكن يا لها من كارثة لو اعتبر المرء الإصبع هو القمر! يبدو هذا غير محتمل، لكننا لا نعرف عدد المرات التي نرتكب فيها هذا النوع من الأخطاء. غالباً ما ينقذنا الجهل وحده من الانزعاج في حالة الرضا عن النفس. لكن مهمة الكاتب في الزن لا تتجاوز الإشارة إلى القمر، فهذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة له في تلك الظروف؛ وسيبذل كل ما في وسعه لجعل الموضوع المطروح مفهوماً تماماً قدر الإمكان. عندما يتم تناول الزن من منظور ميتافيزيقي، قد يشعر القارئ بالإحباط نوعًا ما بشأن إمكانية فهمه على الإطلاق، لأن معظم الناس ليسوا مدمنين بشكل عام على التكهنات أو الاستبطان. دعوني أتناول الأمر من زاوية مختلفة تماماً، ربما تكون أقرب إلى الزن الحقيقي.

عندما سُئل جوشو (تشاو تشو) عن ماهية الطاو (أو حقيقة الزن)، أجاب: "حياتك اليومية، تلك هي الطاو". بمعنى آخر، وجود هادئ، واثق من نفسه، ومليء بالثقة - هذه هي حقيقة الزن، وهذا ما أعنيه عندما أقول إن الزن عملي للغاية. إنه يخاطب الحياة مباشرة، دون الإشارة حتى إلى النفس أو إلى الله، أو إلى أي شيء يتعارض مع مجرى الحياة العادي أو يعطله. تتلخص فكرة الزن في عيش الحياة كما هي. لا يوجد شيء غير عادي أو غامض في الزن. أرفع يدي؛ آخذ كتاباً من الجانب الآخر من هذا المكتب؛ أسمع الأولاد يلعبون الكرة خارج نافذتي؛ أرى الغيوم تتبدد وراء الغابة المجاورة: - في كل هذا أمارس الزن، أعيش الزن. لا داعي لنقاش مطول، ولا لأي شرح. لا أعرف لماذا - ولا حاجة للشرح - ولكن عندما تشرق الشمس يرقص العالم كله فرحاً وتمتلئ قلوب الجميع بالنعيم. إذا كان مفهوم الزن قابلاً للتصور، فيجب تطبيقه هنا.

لذلك، عندما سُئل بوديدهارما (داروما باليابانية؛ تا-مو بالصينية) عن هويته، قال: "لا أعرف". لم يكن ذلك لأنه لم يستطع شرح نفسه، ولا لأنه أراد تجنب أي جدل لفظي، بل لأنه لم يكن يعرف ما هو أو من هو، إلا أنه كان ما هو عليه ولا يمكن أن يكون أي شيء آخر. كان السبب بسيطاً بما فيه الكفاية. عندما كان نانغاكو (نان-يوي، 677-744) يقترب من البطريرك السادس، وسُئل: "ما الذي يسير نحوي هكذا؟" لم يكن يعرف ماذا يجيب. لقد ظل يفكر في السؤال لثماني سنوات طويلة، حتى أدرك الأمر فجأة ذات يوم، فصرخ قائلاً: "حتى القول بأنه شيء ما لا يفي بالغرض". وهذا يعني قول: "أنا لا أعرف".

سأل سيكيتو ذات مرة تلميذه ياكوسان (يوي شان): "ماذا تفعل هنا؟" أجاب الأخير: "أنا لا أفعل شيئاً". "إذا كان الأمر كذلك، فأنت تضيع وقتك هباءً." أليس إضاعة الوقت في فعل شيء مفيد؟ كان هذا رد ياكوسان. استمر سيكيتو في مطاردته. "تقول إنك لا تفعل شيئاً؛ فمن يكون هذا الذي لا يفعل شيئاً؟" وكان رد ياكوسان مماثلاً لرد بوديدهارما، "حتى الحكماء لا يعرفون ذلك". لا يوجد فيه أي لاأدرية، ولا أي تصوف أيضاً، إذا تم فهم ذلك بمعنى التضليل. حقيقة واضحة مذكورة هنا بلغة بسيطة. إذا لم يبدو الأمر كذلك للقارئ، فذلك لأنه لم يصل إلى حالة الذهن التي مكنت بوديدهارما أو سيكيتو من الإدلاء بهذا التصريح.

طلب الإمبراطور وو من سلالة ليانغ من فو دايشي (فو-تا-شي، 497-569) إلقاء محاضرة حول سوترا بوذية. جلس الدايشي على الكرسي بوقار لكنه لم ينطق بكلمة واحدة. قال الإمبراطور: "لقد طلبت منك إلقاء خطاب، فلماذا لا تبدأ بالكلام؟" شي، قال أحد مرافقين الإمبراطور: "لقد انتهى الدايشي من الحديث". أي نوع من المواعظ ألقاها هذا الفيلسوف البوذي الصامت؟ وفي وقت لاحق، علّق أحد أساتذة الزن على ما سبق قائلاً: "يا لها من خطبة بليغة!" كان لدى فيمالاكيرتي، بطل السوترا التي تحمل اسمه،

نفس الطريقة في الإجابة على السؤال: "ما هي العقيدة المطلقة للاثنائية؟" قال أحدهم: "إن صمت فيمالاكيرتي مدوٍّ حقاً". هل كان إبقاء الفم مغلقاً حقاً أمراً يصم الآذان؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أصمت الآن، والكون كله، بكل ما فيه من ضجيج وصخب، ينغمس في هذا الصمت المطلق. لكن التقليد لا يحول الضفدع إلى ورقة خضراء. حيث لا توجد أصالة إبداعية، لا يوجد زن. لا بد لي أن أقول: "فات الأوان، فات الأوان! لقد خرج السهم عن الوتر."

سأل راهب يينو (هوي نينغ)، البطريرك السادس: "من ورث روح البطريرك الخامس (هونغ جين)؟"

أجاب يينو: "من يفهم البوذية".

"هل ورثتها إذن؟"

أجاب يينو: "لا، لم أفعل".

"لماذا لم تفعل ذلك؟" كان هذا بطبيعة الحال السؤال التالي الذي طرحه الراهب.

"لأنني لا أفهم البوذية"، هكذا برر يينو ذلك.

كم هو صعب، ومع ذلك كم هو سهل فهم حقيقة الزن! صعب لأن فهمه يعني عدم فهمه؛ سهل لأن عدم فهمه يعني فهمه. يصرح أحد المعلمين بأن حتى بوذا شاكياموني وبوديساتفا مايتريا لا يفهمان ذلك، بينما يفهمه الأوغاد ذوو العقول البسيطة.

يمكننا الآن أن نفهم لماذا يتجنب الزن التجريدات والتمثيلات والمجازات. لا توجد قيمة حقيقية مرتبطة بكلمات مثل الله، بوذا، النفس، اللانهائي، الواحد، وما شابه ذلك من كلمات. فهي في النهاية مجرد كلمات وأفكار، وعلى هذا النحو فهي لا تؤدي إلى الفهم الحقيقي للزن. بل على العكس من ذلك، فهي غالباً ما تزيف الحقائق وتلعب ضد بعضها البعض. لذا فنحن مضطرون دائماً إلى توخي الحذر. قال أحد أساتذة الزن: "نظف فمك جيداً عندما تنطق بكلمة بوذا". أو، "هناك كلمة واحدة لا أحب سماعها؛ وهي كلمة بوذا". أو، "مر سريعاً حيث لا يوجد بوذا، ولا تبقى حيث يوجد". لماذا يُظهر أتباع الزن عداءً شديداً تجاه بوذا؟ أليس بوذا سيدهم؟ أليس هو الحقيقة الأسمى في البوذية؟ لا يمكن أن يكون شيئًا بغيضًا أو نجسًا لدرجة أن يتجنبه أتباع الزن. ما لا يعجبهم ليس بوذا نفسه، بل الكراهية المرتبطة بالكلمة.

الإجابات التي قدمها أساتذة الزن على السؤال "من أو ما هو بوذا؟" مليئة بالتنوع؛ ولماذا؟ أحد الأسباب على الأقل هو أنهم يرغبون بالتالي في تحرير عقولنا من جميع التشابكات والتعلقات الممكنة مثل الكلمات والأفكار والرغبات وما إلى ذلك، والتي تُفرض علينا من الخارج. إذن، بعض الإجابات هي كما يلي:

"واحد مصنوع من الطين ومزين بالذهب."

"حتى أفضل الفنانين لا يستطيعون رسمه."

"التمثال الموجود في قاعة بوذا".

"إنه ليس بوذا."

"اسمك ييكو."

"لقد جفت مكشطة التراب تماماً."

"انظر إلى الجبال الشرقية وهي تتحرك فوق الأمواج."

"لا مجال للهراء هنا."

"نحن هنا محاطون بالجبال."

"بستان الخيزران عند سفح تل تشانغ لين."

"ثلاثة أرطال من الكتان."

"الفم هو باب الويل".

"ها هي الأمواج تتدحرج فوق الهضبة."

"انظر إلى الحمار ذي الأرجل الثلاث وهو يهرول."

"نبتت قصبة تخترق الساق."

"ها هو ذا رجل صدره مكشوف وساقاه عاريتان تماماً."

تم اختيار هذه النصوص عشوائياً من بعض الكتب التي أستخدمها لهذا الغرض. عندما يتم إجراء بحث منهجي شامل في مجمل أدبيات الزن، نحصل على مجموعة كبيرة من أغرب التصريحات التي قيلت على الإطلاق فيما يتعلق بسؤال بسيط مثل: "من هو بوذا؟" بعض الإجابات المذكورة أعلاه غير ذات صلة تمامًا؛ بل إنها بعيدة كل البعد عن كونها مناسبة بقدر ما نحكم عليها من خلال معيارنا المعتاد للتفكير. يبدو أن الآخرين يسخرون من السؤال أو من السائل نفسه. هل يمكن اعتبار أساتذة الزن الذين يدلون بمثل هذه التصريحات جادين ويرغبون حقًا في تنوير أتباعهم؟ لكن الهدف هو أن تعمل عقولنا في اتحاد كامل مع الحالة الذهنية التي نطق بها الأساتذة بهذه الكلمات الغريبة. عند القيام بذلك، تظهر كل إجابة من هذه الإجابات في ضوء جديد تمامًا وتصبح شفافة بشكل رائع.

بفضل طبيعتها العملية والمباشرة، لا يضيع الزن الوقت أو الكلمات في الشرح. إجاباته دائماً موجزة ومختصرة؛ لا يوجد شيء ملتوٍ في الزن؛ كلمات المعلم تخرج بشكل عفوي ودون أي تأخير. يُقرع الجرس وتتبعه اهتزازاته على الفور. إذا لم نكن متيقظين، فلن نتمكن من اللحاق بهم؛ مجرد غمزات خفيفة تكفي لنفشل في تحقيق هدفنا إلى الأبد. إنهم يقارنون الزن بالبرق بشكل صحيح. لكن السرعة لا تشكل جوهر الزن؛ بل طبيعته، وتحرره من التصنع، وكونه معبرة عن الحياة نفسها، وأصالتها - هذه هي الخصائص الأساسية للزن. لذلك، علينا أن نكون دائماً على حذر من الانجراف وراء المظاهر الخارجية عندما نرغب حقاً في الوصول إلى جوهر الزن. كم سيكون من الصعب والمضلل محاولة فهم الزن حرفياً ومنطقياً، بالاعتماد على تلك التصريحات التي تم تقديمها أعلاه كإجابات على السؤال "ما هو بوذا؟" بالطبع، بقدر ما تُقدم هذه الإجابات، فهي بمثابة مؤشرات يمكننا من خلالها معرفة أين نبحث عن وجود بوذا؛ ولكن يجب أن نتذكر أن الإصبع الذي يشير إلى القمر يبقى إصبعًا ولا يمكن بأي حال من الأحوال تحويله إلى القمر نفسه. يكمن الخطر دائماً حيث يتسلل العقل بخبث ويتخذ مؤشراً للقمر نفسه.

ومع ذلك، هناك فلاسفة يحاولون، من خلال أخذ بعض الأقوال المذكورة أعلاه بمعناها الأدبي والمنطقي، أن يروا فيها شيئاً من الواحدية. فعلى سبيل المثال، عندما يقول المعلم "ثلاثة أرطال من الكتان"، أو "مكشطة التراب"، فإن المقصود بذلك على ما يبدو، كما يصرون، هو نقل فكرة الواحدية. وهذا يعني أن أساتذة الزن هؤلاء يعتبرون بوذا يتجلى في كل شيء: في الكتان، وفي قطعة من الخشب، وفي مجرى النهر الجاري، وفي الجبال الشاهقة، أو في الأعمال الفنية. يبدو أن البوذية الماهايانية، وخاصة الزن، تشير إلى شيء من روح الواحدية، ولكن لا شيء في الواقع أبعد عن الزن من هذا التمثيل. لقد تنبأ الأساتذة منذ البداية بهذا الميل الخطير، ولهذا السبب يدلون بتلك التصريحات التي تبدو غير متماسكة. إن هدفهم هو تحرير عقول تلاميذهم أو علماءهم من أن تُقمع بأي آراء ثابتة أو تحيزات أو ما يسمى بالتفسيرات المنطقية. عندما أجاب توزان (تونغشان، أحد تلاميذ أومون) على سؤال "ما هو بوذا؟" قائلاً: "ثلاثة أرطال من الكتان" - وهو بالمناسبة نفس الشيء الذي يعني السؤال "ما هو الله؟" - لم يكن يقصد أن

الكتان الذي ربما كان يتعامل معه في ذلك الوقت كان مظهراً مرئياً لبوذا، وأن بوذا عندما يُرى بعين الذكاء يمكن أن يُصادف في كل شيء. وكان جوابه ببساطة: "ثلاثة أرطال من الكتان". لم يلمح إلى أي شيء ميتافيزيقي في هذا التصريح الواقعي البسيط. خرجت هذه الكلمات من أعماق وعيه كما يتدفق الماء من نبع، أو كما تنفجر برعم في ضوء الشمس. لم يكن هناك أي تخطيط مسبق أو فلسفة من جانبه. لذلك، إذا أردنا أن نفهم معنى "ثلاثة أرطال من الكتان"، فعلينا أولاً أن نخترق أعمق زوايا وعي توزان، وليس أن نحاول متابعة كلامه. وفي وقت آخر قد يقدم إجابة مختلفة تماماً، والتي قد تتعارض بشكل مباشر مع الإجابة التي تم تقديمها بالفعل. سيصاب علماء المنطق بالحيرة بطبيعة الحال؛ وقد يعلنون أنه خارج عن الأذهان تماماً. لكن طلاب الزن سيقولون: "إنها تمطر بلطف شديد، انظروا كم هو العشب نضر وأخضر"، وهم يعلمون جيدًا أن إجابتهم تتفق تمامًا مع قول توزان: "ثلاثة أرطال من الكتان".

ربما يوضح ما يلي أيضًا أن الزن ليس شكلاً من أشكال الواحدية، إذا فهمنا من هذا أي فلسفة تحدد الكون المرئي بأعلى حقيقة، تسمى الله أو العقل أو غير ذلك، وتنص على أن الله لا يمكن أن يوجد بشكل مستقل عن تجلياته. في الحقيقة، الزن هو شيء أكثر من ذلك. في الزن، لا مكان للنقاشات الفلسفية التي تضيع الوقت. لكن الفلسفة هي أيضاً مظهر من مظاهر النشاط الحياتي، وبالتالي فإن الزن لا يتجنبها بالضرورة. عندما يأتي فيلسوفٌ ساعياً إلى التنوير، لا يتردد معلم الزن أبداً في مقابلته على أرضه. كان أساتذة الزن الأوائل متسامحين نسبياً تجاه ما يسمى بالفلاسفة ولم يكونوا متسرعين كما هو الحال مع رينزاي (لين تشي، توفي عام 867) أو توكوسان (تي شان، 780-865)، الذين كانت تعاملاتهم معهم سريعة ومباشرة للغاية. ما يلي مأخوذ من رسالة كتبها دايجو[1] حول بعض مبادئ الزن التي تم تجميعها في القرن الثامن (أو التاسع)، عندما بدأ الزن يزدهر بكل تألقه وبكل تفرده. سأل راهب دايجو:

سؤال: هل الكلمات هي العقل؟

"إجابة. لا، الكلمات هي ظروف خارجية (ين باليابانية؛ يوان بالصينية)؛ إنها ليست العقل."

"سؤال: بصرف النظر عن الظروف الخارجية، أين يمكن البحث عن العقل؟"

"إجابة. لا يوجد عقل مستقل عن الكلمات." [أي أن العقل موجود في الكلمات، لكن لا ينبغي تعريفه بها.]

سؤال: إذا لم يكن هناك عقل مستقل عن الكلمات، فما هو العقل؟

"إجابة. العقل بلا شكل ولا صورة." والحقيقة هي أنه ليس مستقل عن الكلمات ولا يعتمد عليها. إنه هادئ وحر في نشاطه إلى الأبد. يقول البطريرك: "عندما تدرك أن العقل ليس عقلاً، فإنك تفهم العقل وكيفية عمله".

ويكتب دايجو أيضًا: "إن ما ينتج كل الأشياء يسمى طبيعة دارما، أو دارماكايا. والمقصود بما يسمى دارما هو عقل جميع الكائنات. عندما يضطرب هذا العقل، تضطرب كل الأشياء. عندما لا يكون العقل مضطرباً، فلا يوجد شيء يتحرك ولا يوجد اسم. لا يفهم الحائرون أن الدارماكايا، في حد ذاتها بلا شكل، تتخذ أشكالاً فردية وفقاً للظروف. يظنّ الحائرون أن الخيزران الأخضر هو دارماكايا نفسه، وأن الشجرة الصفراء المزهرة هي براجنا نفسه. لكن إذا كانت الشجرة هي براجنا، فإن براجنا ستكون مطابقة للكائن غير الواعي. إذا كان الخيزران هو دارماكايا، فإن دارماكايا ستكون مطابقة للنبات. لكن دارماكايا موجودة، وبراجنا موجودة، حتى عندما لا توجد شجرة مزهرة، ولا خيزران أخضر. وإلا، فعندما يأكل المرء براعم الخيزران، فإن ذلك سيؤدي إلى التهام دارماكايا نفسها. لا تستحق مثل هذه الآراء الحديث عنها حقاً."

II

أولئك الذين قرأوا فقط المعالجة السابقة للزن باعتباره غير منطقي، أو للزن باعتباره تأكيدًا أعلى، قد يستنتجون أن الزن شيء لا يمكن الاقتراب منه، شيء بعيد كل البعد عن حياتنا اليومية العادية، شيء جذاب للغاية ولكنه مراوغ للغاية؛ ولا يمكننا لومهم على هذا التفكير. لذلك، ينبغي تقديم الزن أيضاً من جانبه السهل والمألوف والذي يسهل الوصول إليه. الحياة هي أساس كل شيء؛ فبدونها لا يمكن لأي شيء أن يقوم. مع كل فلسفتنا، ومع كل أفكارنا العظيمة والمحفزة، لا يمكننا الهروب من الحياة كما نعيشها. لا يزال مراقبو النجوم يسيرون على الأرض الصلبة.

ما هو الزن إذن، عندما يصبح في متناول الجميع؟ سأل جوشو (تشاو تشو) راهباً جديداً ذات مرة:

"هل سبق لك أن كنت هنا من قبل؟"

أجاب الراهب: "نعم يا سيدي، لقد فعلت".

فقال المعلم: "تناول فنجاناً من الشاي".

وفي وقت لاحق جاء راهب آخر وسأله نفس السؤال: "هل سبق لك أن كنت هنا؟"

هذه المرة كانت الإجابة عكس ذلك تماماً. "لم أكن هنا قط يا سيدي."

لكن المعلم العجوز أجاب كما في السابق: "تناول فنجانًا من الشاي".

بعد ذلك سأل إنجو (الراهب المسؤول عن الدير) المعلم: "كيف تقدم نفس كوب الشاي بغض النظر عن رد الراهب؟"

نادى المعلم العجوز قائلاً: "يا إنجو!" فأجاب على الفور: "نعم يا معلم". فقال جوشو: "تناول كوبًا من الشاي".

كان جوشو (778-897) أحد أكثر أساتذة الزن دهاءً خلال عهد أسرة تانغ، ويعود الفضل في تطور الزن في الصين إلى حد كبير إليه. ويُقال إنه سافر حتى عندما كان في الثمانين من عمره، وكان هدفه هو إتقان فن الزن. توفي في عامه المئة والعشرين. كانت كلماته كالجواهر التي تتلألأ ببريق ساطع. وقيل عنه: "إنّ زنه يتجلى على شفتيه". جاء إليه راهب كان لا يزال مبتدئاً وطلب منه أن يتلقى دروساً في الزن.

قال جوشو: "ألم تتناول فطورك بعد؟"

أجاب الراهب: "نعم يا سيدي، لقد حصلت عليه بالفعل".

"إذا كان الأمر كذلك، فاغسل أطباقك." لقد فتحت هذه الملاحظة التي أدلى بها المعلم القديم عين المبتدئ على حقيقة الزن.

في أحد الأيام كان يكنس الأرض عندما سأله راهب: "أنت معلم حكيم ومقدس، أخبرني كيف يتراكم الغبار في فناء منزلك؟"

قال المعلم: "إنها تأتي من الخارج".

وفي مرة أخرى سُئل: "لماذا يجذب هذا المكان المقدس الغبار؟" وكان رده: "ها هي ذرة غبار أخرى!"

كان هناك جسر حجري شهير في دير جوشو، والذي كان أحد المعالم السياحية هناك. سأله راهب غريب: "لقد سمعت منذ فترة عن جسرك الحجري الشهير، لكنني لا أرى شيئًا من هذا القبيل هنا، فقط لوح خشبي".

قال جوشو: "أنت ترى لوحاً خشبياً ولا ترى جسراً حجرياً".

"أين الجسر الحجري إذن؟"

"لقد تجاوزت ذلك للتو"، كان الرد السريع.

وفي وقت آخر عندما سُئل جوشو عن نفس الجسر الحجري، كانت إجابته: "تمر الخيول من هنا، ويمر الناس من هنا، ويمر الجميع من هنا".

هل نرى في هذه الحوارات مجرد أحاديث تافهة عن أمور الحياة والطبيعة العادية؟ أليس هناك شيء روحي، يُسهم في تنوير الروح الدينية؟ هل الزن، إذن، عملي للغاية، ومبتذل للغاية؟ هل يُعدّ هذا انحداراً مفاجئاً للغاية من ذروة الفلسفة المتعالية إلى الأمور اليومية؟ حسناً، الأمر كله يعتمد على وجهة نظرك. عود بخور يحترق على مكتبي. هل هذا أمر تافه؟ هز زلزال الأرض وسقط جبل فوجي. هل هذا حدث عظيم؟ نعم، طالما بقي مفهوم الفضاء قائماً. لكن هل نعيش حقاً محصورين داخل حيز يسمى الفضاء؟ كان سيجيب الزن على الفور: "مع احتراق عود البخور تحترق العوالم الثلاثة (ثريلوكا) بأكملها". "في فنجان شاي جوشو، ترقص حوريات البحر." طالما أن المرء يدرك المكان والزمان، فإن الزن سيحافظ على مسافة محترمة منك؛ ستكون عطلتك سيئة، ونومك مضطرباً، وحياتك كلها فاشلة.

اقرأ الحوار التالي بين بيسان (كوي شان) وكيوزان (يانغ ثان). في نهاية إقامته الصيفية، قام كيوزان بزيارة إلى بيسان، الذي قال: "لم أرك طوال هذا الصيف قادمًا إلى هنا؛ ماذا كنت تفعل هناك؟"

أجاب كيوزان: "هناك كنت أقوم بحرث قطعة أرض وانتهيت من زراعة بذور الدخن".

قال بيسان: "إذن لم تضيع صيفك هباءً".

حان دور كيوزان الآن ليسأل بيسان عن أحواله خلال الصيف الماضي، فسأله: "كيف قضيت صيفك؟"

"وجبة واحدة في اليوم ونوم جيد في الليل."

وهذا ما دفع كيوزان للتعليق قائلاً: "إذن لم تضيع صيفك هباءً".

كتب أحد علماء الكونفوشيوسية: "إنهم يبحثون عن الحقيقة بعيداً عنهم، بينما هي قريبة منهم جداً". وينطبق الشيء نفسه على الزن. نبحث عن أسراره حيث من غير المرجح أن نجدها، أي في التجريدات اللفظية والدقائق الميتافيزيقية، بينما تكمن حقيقة الزن حقًا في الأشياء الملموسة في حياتنا اليومية. سأل راهب المعلم: "لقد مر بعض الوقت منذ أن جئت إليك لأتلقى التوجيه في الطريق المقدس لبوذا، لكنك لم تعطيني ولو تلميحاً واحداً عنه. أرجو أن تكون أكثر تعاطفاً." وجاء الرد التالي: "ماذا تقصد يا بني؟ كل صباح تحييني، ألا أرد التحية؟ عندما تحضر لي كوباً من الشاي، ألا أقبله وأستمتع بشربه؟ إلى جانب ذلك، ما هي التعليمات الأخرى التي ترغبها مني؟

هل هذا هو الزن؟ هل هذا هو نوع تجربة الحياة التي يريدنا الزن أن نخوضها؟ شاعر زن يغني:

يا له من أمر غريب ومدهش، ويا له من أمر معجز!

أنا أسقي الماء، وأحمل الوقود.

عندما يُقال إن الزن غير منطقي وغير عقلاني، يشعر القراء الخجولون بالخوف وقد يرغبون في عدم التعامل معه، لكني واثق من أن الفصل الحالي المخصص للزن العملي سيخفف من أي قسوة وفظاظة ربما كانت موجودة فيه عندما تم التعامل معه فكريًا. بقدر ما تكمن حقيقة الزن في جانبه العملي وليس في عدم عقلانيته، يجب ألا نولي الكثير من الاهتمام لعدم عقلانيته. قد يؤدي هذا إلى جعل الزن أكثر صعوبة في الوصول إليه بالنسبة للعقول العادية، ولكن من أجل إظهار مدى بساطة الزن وواقعيته، وفي الوقت نفسه التأكيد على الجانب العملي للزن، سأذكر بعضًا من ما يسمى "الحالات" التي يتم فيها اللجوء إلى أكثر التجارب سذاجة التي قد يمر بها المرء في الحياة. إنهم ساذجون بالفعل، بمعنى أنهم متحررون من البرهان المفاهيمي أو من التحليل الفكري. ترى عصا مرفوعة، أو يُطلب منك تمرير قطعة من أثاث المنزل، أو يتم مناداتك باسمك ببساطة. هذه هي أبسط أحداث الحياة التي تحدث كل يوم وتمر دون أي ملاحظة خاصة، ومع ذلك فإن الزن موجود - الزن الذي من المفترض أن يكون مليئًا باللاعقلانية، أو إذا أردت أن تقول ذلك، فهو مليء بأعلى التأملات الممكنة للفهم البشري. فيما يلي بعض الأمثلة الأخرى من هذا القبيل، وهي أمثلة بسيطة ومباشرة وعملية، ومع ذلك فهي مليئة بالمعنى.

سأل سيكيو (شيه كونغ) [2] أحد رهبانه الماهرين: "هل يمكنك أن تستحوذ على الفراغ؟"

أجاب قائلاً: "نعم سيدي".

"أرني كيف تفعل ذلك."

مدّ الراهب ذراعه وتشبث بالفراغ.

قال سيكيو: "هل هذه هي الطريقة؟ لكن في النهاية، لم تحصل على شيء."

"فما هي طريقتك إذن؟" سأل الراهب.

أمسك المعلم على الفور بأنف الراهب وسحبه بقوة، مما جعل الراهب يصيح قائلاً: "أوه، أوه، أنت تسحب أنفي بقوة!" أنت تؤلمني بشدة!"

قال المعلم: "هذه هي الطريقة الأمثل للسيطرة على المساحة الفارغة".

عندما سأل أحد الرهبان ينكوان (ين-كوان)، أحد تلاميذ ما-تسو، عن هوية بوذا فايروتشانا الحقيقي، طلب ينكوان من الراهب أن يمرر إبريق ماء كان قريبًا. أحضره الراهب إليه كما طلب، لكن ينكوان أمر الآن بإعادته إلى مكانه السابق. بعد أن امتثل الراهب للأمر طاعةً، سأل المعلم مرة أخرى من هو بوذا فيروتشانا الحقيقي. وكان الرد: "لم يعد بوذا العجوز الجليل هنا". وفي هذا الصدد، علق معلم زن آخر قائلاً: "نعم، لقد كان بوذا العجوز الجليل هنا منذ زمن طويل".

إذا اعتبرت هذه الحوادث غير خالية تمامًا من التعقيدات الفكرية، فما رأيك في حالة تشو (تشونغ، توفي عام 775)، المعلم الوطني لنان يانغ، الذي اعتاد أن ينادي خادمه ثلاث مرات في اليوم قائلاً: "يا خادمي، يا خادمي!" وكان الخادم يرد على ذلك بانتظام قائلاً: "نعم يا معلم". وأخيراً قال المعلم: "كنت أظن أنني كنت مخطئاً معك، لكنك أنت المخطئ معي". أليس هذا بسيطاً بما فيه الكفاية؟ - مجرد مناداة الشخص باسمه؟ قد لا يكون تعليق تشو الأخير واضحًا جدًا من وجهة نظر منطقية عادية، لكن دعوة واحدة واستجابة أخرى هي واحدة من أكثر شؤون الحياة شيوعًا وأكثرها عملية. يُعلن الزن أن الحقيقة موجودة هناك تحديداً، لذلك يمكننا أن نرى مدى واقعية الزن. لا يوجد أي غموض في الأمر، فالحقيقة واضحة للجميع: أحييك، فترد عليّ؛ بكلمة "مرحبا!" واحدة تستدعي كلمة "مرحبا!" أخرى وهذا كل ما في الأمر.

كان ريوسوي (ليانغ سوي) يدرس الزن على يد مايوكو (ما كو، وهو معاصر لرينزاي)، وعندما نادى مايوكو قائلاً: "يا ريوسوي!" أجاب قائلاً: "نعم!" نادى ثلاث مرات، أجاب ثلاث مرات، عندما قال المعلم: "يا غبي!" أعاد هذا الأمر ريوسوي إلى رشده؛ لقد فهم الآن الزن وصاح قائلاً: "يا سيدي، لا تخدعني بعد الآن. لو لم آتِ إليك لكنت قد ضللتُ طوال حياتي ضلالاً بائساً

بسبب السوترا والشاسترا." وفي وقت لاحق قال ريوسوي لبعض زملائه الرهبان الذين كانوا يقضون وقتهم في إتقان الفلسفة البوذية: "كل ما تعرفونه، أعرفه؛ ولكن ما أعرفه، لا أحد منكم يعرفه". أليس من الرائع أن يتمكن ريوسوي من الإدلاء بمثل هذا التصريح بمجرد فهمه لأهمية نداء سيده؟

هل تجعل هذه الأمثلة الموضوع المطروح أكثر وضوحاً أو قابلية للفهم مما كان عليه من قبل؟ يمكنني أن أعدد مثل هذه الأمثلة إلى ما لا نهاية، لكن تلك التي تم ذكرها حتى الآن قد تكفي لإظهار أن الزن ليس في نهاية المطاف أمراً معقداً للغاية، أو دراسة تتطلب أعلى قدر من التجريد والتأمل. تكمن حقيقة وقوة الزن في بساطته ووضوحه وعمليته القصوى. "صباح الخير؛ كيف حالك اليوم؟" "شكراً لك، أنا بخير" - هذا هو الزن. "تفضل كوباً من الشاي" - وهذا، مرة أخرى، مليء بالروحانية. عندما سمع راهب جائع أثناء عمله صوت جرس العشاء، ترك عمله على الفور ودخل غرفة الطعام. عندما رآه المعلم، ضحك من أعماق قلبه، لأن الراهب كان يجسد الزن على أكمل وجه. لا شيء أكثر طبيعية من ذلك؛ الشيء الوحيد الضروري هو أن يفتح المرء عينيه على أهمية كل ذلك.

لكن ثمة ثغرة خطيرة ينبغي على دارس الزن أن يكون حريصاً بشكل خاص على تجنبها. لا ينبغي الخلط بين الزن والطبيعية أو التحررية، والتي تعني اتباع الميول الطبيعية للفرد دون التشكيك في أصلها وقيمتها. هناك فرق كبير بين الفعل البشري وفعل الحيوانات، التي تفتقر إلى الحدس الأخلاقي والوعي الديني. لا تعرف الحيوانات شيئاً عن بذل الجهد لتحسين ظروفها أو للتقدم في طريق الفضائل العليا. كان سيكيو يعمل في المطبخ ذات يوم عندما دخل باسو، معلمه في الزن، وسأله عما كان يفعله. قال التلميذ: "أنا أرعى البقرة". "كيف تعتني بها؟" "إذا انحرفت عن المسار ولو لمرة واحدة، فسأسحبها مباشرة من أنفها؛ لا يُسمح بأي تأخير ولو للحظة." قال المعلم: "أنت تعرف حقاً كيف تعتني بها". هذا ليس مذهباً طبيعياً. هذا جهد لفعل الصواب.

سُئل أحد المعلمين المتميزين ذات مرة: "هل تبذل أي جهد لتكون منضبطاً في الحق؟"

"أجل".

"كيف تدرب نفسك؟"

"عندما أشعر بالجوع آكل، وعندما أشعر بالتعب أنام."

"هذا ما يفعله الجميع؛ هل يمكن القول إنهم يدربون أنفسهم بنفس الطريقة التي تمارسها أنت؟"

"لا".

"لِمَ لا؟"

"لأنهم عندما يأكلون لا يأكلون، بل يفكرون في أشياء أخرى مختلفة، مما يسمح لأنفسهم بالانزعاج؛ وعندما ينامون لا ينامون، بل يحلمون بألف وواحد شيء. لهذا السبب هم ليسوا مثلي."

إذا كان من الممكن تسمية الزن بشكل من أشكال الطبيعية، فإنه كذلك مع وجود انضباط صارم في جوهره. بهذا المعنى، وليس كما يفهمه المنحلون، يمكن اعتبار الزن مذهباً طبيعياً. لا يملك المنحلون حرية الإرادة، فهم مقيدون بأيديهم وأرجلهم من قبل جهات خارجية لا حول لهم ولا قوة أمامها. أما الزن، على النقيض من ذلك، فيتمتع بحرية كاملة؛ أي أنه سيد نفسه. ليس للزن "مكان إقامة دائم"، على حد تعبير شائع في سوترا براجناباراميتا. عندما يكون للشيء مسكن ثابت، فإنه يصبح مقيداً، ولا يكون مطلقاً بعد الآن. سيوضح الحوار التالي هذه النقطة بوضوح تام.

سأل راهب: "أين هو المكان الذي يستقر فيه العقل؟"

أجاب المعلم: "إن العقل يستقر حيث لا يوجد تعلق".

"ما المقصود بعبارة "لا يوجد تعلق"؟"

"عندما لا يكون العقل متعلقاً بأي شيء معين، نقول إنه يستقر حيث لا يوجد تعلق."

"ما المقصود بعدم تعلق العقل بأي شيء معين؟"

"هذا يعني عدم البقاء في ثنائية الخير والشر، والوجود والعدم، والفكر والمادة؛ ويعني عدم البقاء في الفراغ أو في عدم الفراغ، ولا في السكينة ولا في عدم السكينة." حيث لا يوجد مكان للاستقرار، فهذا هو المكان الحقيقي لاستقرار العقل.

كان سيبو (هسوه فنغ، 822-908) أحد أكثر الباحثين جدية عن الحقيقة في تاريخ الزن خلال عهد أسرة تانغ. ويُقال إنه كان يحمل مغرفة طوال سنوات تجواله الطويلة في ممارسات الزن التأديبية. كانت فكرته هي العمل في واحدة من أكثر المناصب احتقارًا وصعوبة في حياة الدير - أي كطاهٍ - وكانت المغرفة رمزه. عندما خلف توكوسان (تيه-شان) أخيرًا كمعلم زن، اقترب منه راهب وسأله: "ما الذي حققته تحت قيادة توكوسان؟ كم أنت هادئ ومكتفٍ بذاتك! "ذهبت من المنزل خالي الوفاض، وعدت خالي الوفاض." أليس هذا تفسيراً عملياً لمبدأ "عدم وجود مكان للإقامة"؟ أراد الرهبان أن يلقي معلمهم هياكوجو (باي تشانغ) محاضرة عن الزن. He said, “You attend to the farming and later on I will tell you all about Zen.”
بعد أن انتهوا من العمل، طُلب من المعلم أن يفي بوعده، ففتح ذراعيه، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة. كانت هذه خطبته العظيمة.

7

الساتوري، أو الحصول على وجهة نظر جديدة[1]

يتمثل هدف ممارسة الزن في اكتساب وجهة نظر جديدة للنظر في جوهر الأشياء. إذا كنت معتادًا على التفكير المنطقي وفقًا لقواعد الثنائية، فتخلص من ذلك وقد تقتنع إلى حد ما بوجهة نظر الزن. من المفترض أننا نعيش في نفس العالم، ولكن من يستطيع أن يجزم بأن الشيء الذي نسميه عادةً حجراً وهو موجود أمام نافذتي هو نفسه بالنسبة لنا نحن الاثنين؟ أنا وأنت نرتشف كوبًا من الشاي. يبدو أن هذا الفعل متشابه بالنسبة لنا كلانا، ولكن من يستطيع أن يحدد مدى الفارق الكبير بين شربك وشربي من وجهة نظر شخصية؟ قد لا تجد في شربك أي صفاء ذهني، بينما يمتلئ شربي له به. والسبب في ذلك هو: أنك تتحرك في دائرة منطقية وأنا خارجها. على الرغم من أنه لا يوجد في الواقع شيء جديد في ما يسمى بوجهة النظر الجديدة للزن، فإن مصطلح "جديد" مناسب للتعبير عن طريقة الزن في النظر إلى العالم، لكن استخدامه هنا هو نوع من التواضع من جانب الزن.

يُطلق على اكتساب وجهة نظر جديدة في الزن اسم الساتوري *(وو في الصينية.)* وصيغة الفعل هي الساتوري. بدونها لا يوجد زن، لأن حياة الزن تبدأ بـ "انفتاح الساتوري*"*. يمكن تعريف الساتوري بأنه النظر الحدسي، على عكس الفهم الفكري والمنطقي. مهما كان التعريف، فإن كلمة *"*الساتوري*"* تعني انكشاف عالم جديد لم يكن مدركاً من قبل في خضم ارتباك العقل الثنائي. وبهذا التعليق التمهيدي، أود من القارئ أن يتأمل في الموندو التالي (حرفيًا، "السؤال والإجابة")، والذي آمل أن يوضح بياني.

طلب راهب شاب من جوشو أن يتلقى دروساً في مذهب الزن. قال المعلم:

"هل تناولت فطورك أم لا؟"

أجاب الراهب: "نعم يا معلم، لقد فعلت".

كان الرد الفوري: "اذهب واغسل أوعيتك". وقد فتح هذا الاقتراح عقل الراهب على الفور على حقيقة الزن.

وفي وقت لاحق علق أومون على الرد قائلاً: "هل كانت هناك أي تعليمات خاصة في هذا التصريح من جوشو، أم لا؟ إذا كان هناك شيء ما، فما هو؟ وإن لم يكن هناك، فأيُّ الساتوري حققه الراهب؟ وفي وقت لاحق، كان لدى سويجان الرد التالي على أومون: "إن المعلم العظيم أومون لا يعرف ما هو ما هو؛ ومن هنا جاء هذا التعليق منه". إنه أمر غير ضروري على الإطلاق؛ إنه مثل رسم أرجل لثعبان، أو رسم لحية للخصي. وجهة نظري تختلف عن وجهة نظره. ذلك الراهب الذي يبدو أنه قد بلغ نوعاً من الساتوري ، يذهب إلى الجحيم مباشرة كالسهم!

ماذا يعني كل هذا - ملاحظة جوشو حول غسل الأوعية، ووصول الراهب إلى الساتوري ، وبدائل أومون، وتأكيد سويجان؟ هل يتحدثون ضد بعضهم البعض، أم أنها مجرد ضجة بلا طائل؟ في رأيي، جميعهم يشيرون إلى اتجاه واحد، ويمكن للراهب أن يذهب إلى أي مكان، لكن الساتوريه ليس بلا جدوى.

كان توكوسان عالماً عظيماً في سوترا الماس. بعد أن علم بوجود شيء اسمه الزن، متجاهلاً جميع النصوص المكتوبة وممارساً وضع اليدين مباشرة على نفس المرء، ذهب إلى ريوتان ليتلقى التعليمات. في أحد الأيام، كان توكوسان يجلس في الخارج محاولاً استكشاف سرّ الزن. قال ريوتان: "لماذا لا تدخل؟" أجاب توكوسان: "الظلام دامس". أُضيئت شمعة وقُدّمت إلى توكوسان. عندما كان على وشك أخذها، قام ريوتان فجأة بإطفاء الضوء، وعندها انفتح عقل توكوسان.

خرج هياكوجو (باي تشانغ) ذات يوم لرعاية سيده باسو (ما تسو)، فرأوا سربًا من الأوز البري يطير. سأل باسو:

"ما هم؟"

"إنهم أوز برية يا سيدي."

"إلى أين يطيرون؟"

"لقد طاروا بعيدًا."

أمسك باسو فجأة بأنف هياكوجو، ثم لوى الأنف. صرخ هياكوجو وهو يغمره الألم: "آه!" آه!"

قال باسو: "تقول إنهم رحلوا، لكنهم مع ذلك كانوا هنا منذ البداية".

هذا جعل ظهر هياكوجو يبتل بالعرق؛ لقد كان قد وصل إلى حالة من الساتوري .

هل ثمة أي صلة محتملة بين غسل الأوعية وإطفاء الشمعة وتحريك الأنف؟ يجب أن نقول مع أورنينون: إذا لم يكن هناك أحد، فكيف استطاعوا جميعًا أن يدركوا حقيقة الزن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي العلاقة الداخلية؟ ما هو هذا الساتوري ؟ ما هي وجهة النظر الجديدة هذه في النظر إلى الأمور؟

في عهد دايبه (تا-هوي)،[2]سيد الزن العظيم في سلالة سونغ، كان هناك راهب يدعى دوكين (تاو-تشيان)، الذي أمضى سنوات عديدة في دراسة الزن، لكنه لم يكشف بعد عن أسراره، إن وجدت. لقد شعر بالإحباط الشديد عندما أُرسل في مهمة إلى مدينة بعيدة. إن رحلة تستغرق نصف عام لإنهائها ستكون عائقاً بدلاً من أن تكون عوناً لدراسته. كان سوجين (تسونغ يوان)، أحد زملائه الطلاب، متعاطفاً للغاية وقال: "سأرافقك في هذه الرحلة وسأفعل كل ما بوسعي من أجلك؛ ليس هناك سبب يمنعك من مواصلة تأملك حتى أثناء السفر". في إحدى الأمسيات، توسل دوكين بيأس إلى صديقه أن يساعده في حل لغز الحياة. قال الصديق: "أنا على استعداد لمساعدتك بكل طريقة ممكنة، ولكن هناك بعض الأمور التي لا أستطيع مساعدتك فيها؛ يجب عليك الاهتمام بها بنفسك". أعرب دوكين عن رغبته في معرفة ماهية هذه الأشياء. قال صديقه: "على سبيل المثال، عندما تشعر بالجوع أو العطش، فإن تناول الطعام أو الشراب مني لن يملأ معدتك؛ يجب أن تأكل وتشرب بنفسك. عندما ترغب في قضاء حاجتك، عليك أن تعتني بنفسك، لأنني لا أستطيع أن أكون ذا فائدة لك. وحينها لن يكون هناك أحد سواك يحمل جسدك على طول هذا الطريق السريع. فتحت هذه النصيحة الودية عقل الراهب الباحث عن الحقيقة على الفور، والذي غمره اكتشافه لدرجة أنه لم يعرف كيف يعبر عن فرحته. قال سوجين إن عمله قد انتهى الآن وأن رفقته لن يكون لها معنى بعد ذلك؛ لذلك ترك دوكين ليواصل رحلته بمفرده. بعد ستة أشهر، عاد دوكين إلى ديره الخاص. صادف دايبي، في طريقه إلى أسفل الجبال، دوكين، فأدلى على الفور بالملاحظة التالية: "هذه المرة يعرف كل شيء". ما الذي خطر ببال دوكن، دعني أسأل، عندما قدم له ميند سوجين هذه النصيحة الواقعية؟

كان كيوجين (شيانغ ين) تلميذاً لـ هياكوجو (باي -تشانغ). بعد وفاة معلمه، ذهب كيوجين إلى ييسان (كوي شان)، الذي كان تلميذاً كبيراً لهياكوجو. سأله ييسان: "قيل لي إنك كنت تدرس على يد معلمي الراحل، وأن لديك ذكاءً ملحوظاً أيضاً. إن فهم الزن من خلال هذه الوسيلة ينتهي بالضرورة إلى فهم تحليلي فكري، وهو أمر ليس ذا فائدة كبيرة؛ ولكن مع ذلك ربما تكون قد حصلت على نظرة ثاقبة لحقيقة الزن. دعني أسمع رأيك في سبب الولادة والموت؛ أي، في وجودك قبل أن ينجبك والداك."

وهكذا، لم يعرف كيوجين كيف يجيب. انسحب إلى غرفته الخاصة وانكبّ على البحث في الملاحظات التي دوّنها عن الخطب التي ألقاها أستاذهم الراحل. لم يعثر على فقرة مناسبة يمكنه تقديمها كوجهة نظره الخاصة. عاد إلى ييسان وتوسل إليه أن يعلمه عقيدة الزن، لكن ييسان أجاب: "ليس لدي ما أقدمه لك حقًا، وإذا حاولت ذلك فقد تجد نفسك عرضة للسخرية. إضافة إلى ذلك، كل ما أستطيع إخبارك به هو ملكي الخاص ولن يكون ملكك أبداً." شعر كيوجين بخيبة أمل واعتبره غير لطيف. وأخيراً توصل إلى قرار بحرق جميع ملاحظاته ومذكراته، التي بدت غير مفيدة لرفاهيته الروحية، والانسحاب كلياً من العالم، ليقضي بقية حياته في عزلة وحياة بسيطة وفقاً للقواعد البوذية. وتساءل: "ما فائدة دراسة البوذية، التي يصعب فهمها والتي هي دقيقة للغاية بحيث لا يمكن تلقيها كتعليم من شخص آخر؟ سأكون راهباً بسيطاً بلا مأوى، لا أشعر بأي حرج ولا أرغب في إتقان أمورٍ أعمق من أن تُفكّر فيها." غادر ييسان وبنى كوخًا بالقرب من قبر تشو، المعلم الوطني في نان يانغ. في أحد الأيام كان يقوم بإزالة الأعشاب

الضارة وكنس الأرض عندما اصطدمت حصاة كان قد كنسها بنبات الخيزران؛ الصوت غير المتوقع الناتج عن الإيقاع رفع عقله إلى حالة من الساتوري . كانت فرحته لا حدود لها. أصبح السؤال الذي طرحه ييسان واضحاً؛ شعر وكأنه يلتقي بوالديه المفقودين. إلى جانب ذلك، أدرك مدى لطف ييسان في رفضه إعطاءه التعليمات، لأنه أدرك الآن أن هذه التجربة ما كانت لتحدث له لو كان ييسان قاسياً بما يكفي لشرح الأمور له.

ألا يمكن شرح الزن بطريقة تمكن المعلم من قيادة جميع تلاميذه إلى التنوير من خلال الشرح؟ هل الساتوري شيء غير قابل للتحليل الفكري على الإطلاق؟ نعم، إنها تجربة لا يمكن لأي قدر من الشرح أو الجدال أن يجعلها قابلة للتوصيل للآخرين ما لم يمر بها هؤلاء الآخرون بأنفسهم من قبل. إذا كان مفهوم "الساتوري" قابلاً للتحليل بمعنى أنه من خلال القيام بذلك يصبح واضحاً تماماً لشخص آخر لم يمر به من قبل، فإن "الساتوري" لن يكون "الساتوري" حقيقياً. لأن الساتوري الذي يتحول إلى مفهوم يتوقف عن كونه نفسه؛ ولن تكون هناك تجربة زن بعد ذلك. لذلك، فإن كل ما يمكننا فعله في الزن من ناحية التعليم هو الإشارة أو الاقتراح أو إظهار الطريق حتى يتم توجيه انتباه المرء نحو الهدف. أما بالنسبة لتحقيق الهدف والإمساك بالشيء نفسه، فيجب القيام بذلك بأيدي المرء، لأنه لا يمكن لأحد آخر أن يفعل ذلك نيابة عنه. أما فيما يتعلق بالدلالة، فهي موجودة في كل مكان. عندما ينضج عقل الإنسان من أجل الساتوري ، فإنه ينهار في كل مكان. إن الصوت غير الواضح، أو الملاحظة غير الذكية، أو الزهرة المتفتحة، أو حادثة تافهة مثل التعثر، هي الحالة أو المناسبة التي ستفتح عقله للالساتوري. على ما يبدو، فإن حدثاً تافهاً ينتج عنه تأثير لا يتناسب مع أهميته على الإطلاق. بمجرد لمسة خفيفة من سلك مشتعل، يتبع ذلك انفجار يهز أركان الأرض. جميع أسباب وشروط الساتوري موجودة في العقل؛ إنها تنتظر فقط النضج. عندما يكون العقل مستعداً لسبب أو لآخر، يطير طائر، أو يرن جرس، فتعود على الفور إلى منزلك الأصلي؛ أي أنك تكتشف ذاتك الحقيقية الآن. منذ البداية لم يُخفَ عنك شيء، كل ما كنت ترغب في رؤيته كان موجوداً أمامك طوال الوقت، أنت وحدك من غض الطرف عن هذه الحقيقة. لذلك، لا يوجد في الزن شيء لشرحه، ولا شيء لتعليمه، مما سيضيف إلى معرفتك. ما لم ينبع من داخلك، فلا توجد معرفة حقيقية لك، إنها مجرد ريش (معرفة) مستعار.

جاء كوزانكوكو (هوانغ شان-كو)، وهو شاعر ورجل دولة كونفوشيوسي من سلالة سونغ، إلى كوايدو (هوي-تانغ) ليتم تأهيله في مبادئ الزن. قال معلم الزن: "هناك مقطع في النص أنت على دراية تامة به يصف بشكل مناسب تعاليم الزن. ألم يقل كونفوشيوس: "أتظنون أنني أخفي عنكم أشياء يا تلاميذي؟ في الحقيقة، ليس لدي ما أخفيه عنكم." حاول كوزانكوكو الرد، لكن كوايدو أوقفه على الفور قائلاً: "لا، لا!" شعر العالم الكونفوشيوسي بالاضطراب في ذهنه لكنه لم يعرف كيف يعبر عن نفسه. وبعد فترة من الزمن، كانوا يتنزهون في الجبال؛ وكان الغار البري في أوج ازدهاره، وكان الهواء يفوح بعبيره. سأل معلم الزن: "هل تشمّها؟" عندما أجاب الكونفوشيوسي بالإيجاب، قال كوايدو: "ها أنا ذا، ليس لدي ما أخفيه عنك". هذا التذكير قاد عقل كوزانكوكو على الفور إلى بدء مرحلة الساتوري.

هذه الأمثلة ستكون كافية لإظهار ماهية الساتوري وكيف تتكشف. لكن قد يتساءل القارئ: "بعد الاطلاع على جميع تفسيراتك أو إشاراتك، لم نكتسب أي حكمة على الإطلاق. ألا يمكنك وصف محتوى الساتوري بشكل قاطع، إن وجد؟ أمثلتك وتصريحاتك مبدئية بما فيه الكفاية، لكننا ببساطة نعرف كيف تهب الرياح؛ فأين الميناء الذي تتجه إليه السفينة في النهاية؟" قد يجيب مريد الزن على هذا قائلاً: فيما يتعلق بالمحتوى، لا يوجد شيء في الساتوري أو الزن يمكن وصفه أو عرضه أو توضيحه لتقديرك الفكري. لأن الزن ليس له علاقة بالأفكار، والساتوري هو نوع من الإدراك الداخلي - ليس إدراكًا لشيء فردي واحد، بل إدراكًا للواقع نفسه، إن صح التعبير. إن الغاية النهائية من الساتوري هي نحو الذات؛ ليس لها غاية أخرى سوى العودة إلى الذات. لذلك، قال جوشو: "تناول كوبًا من الشاي". لذلك، قال نانسن: "هذا منجل جيد للغاية، إنه يقطع بشكل جيد للغاية". هذه هي الطريقة التي تعمل بها الذات، ويجب أن يتم الإمساك بها، إن أمكن الإمساك بها، في خضم عملها.

بما أن الساتوري يضرب في الجذر الأساسي للوجود، فإن تحقيقه يمثل عموماً نقطة تحول في حياة المرء. لكن يجب أن يكون الوصول إلى هذه الغاية شاملاً وواضحاً؛ فالساتوري الفاتر، إن وجد، أسوأ من عدم وجود الساتوري على الإطلاق. انظر الأمثلة التالية:

عندما كان رينزاي (لين-تشي) يستسلم بخنوع للضربات الثلاثين التي وجهها إليه أوباكو (هوانغ-بو)، كان منظره مثيرًا للشفقة، ولكن بمجرد أن بلغ الساتوري أصبح شخصية مختلفة تمامًا. وكانت أول صيحة له: "ليس هناك الكثير في بوذية أوباكو على الإطلاق". وعندما رأى أوباكو المتعجرف مرة أخرى، رد له الجميل بصفعة على وجهه. يا له من متغطرس! يا له من وقاح! قد يظن المرء. لكن كان هناك سبب وراء وقاحة رينزاي؛ فلا عجب أن أوباكو كان مسرورًا جدًا بهذه المعاملة.

عندما أدرك توكوسان (تي-شان) حقيقة الزن، أخرج على الفور جميع تعليقاته على سوترا الماس، التي كانت ذات يوم ذات قيمة كبيرة وتعتبر لا غنى عنها لدرجة أنه كان عليه أن يحملها أينما ذهب، وأشعل فيها النار، مما أدى إلى تحويل جميع المخطوطات إلى رماد. صرخ قائلاً: "مهما بلغت معرفة المرء بالفلسفة الغامضة، فهي كشعرة تطير في الفضاء الشاسع؛ ومهما بلغت أهمية خبرته في الأمور الدنيوية، فهي كقطرة ماء تُلقى في هاوية لا قعر لها".

في أحد الأيام، عقب حادثة الأوز الطائر، التي أشير إليها في مكان آخر، ظهر باسو في قاعة الوعظ وكان على وشك التحدث أمام جماعة، عندما تقدم هياكوجو، الذي كان أنفه حرفيًا مخلوعًا، وبدأ في لف الحصيرة التي تُفرش أمام بوذا لكي يركع المعلم. عادة ما تعني عملية الطي نهاية الخطبة. نزل باسو من على المنبر دون أن يعترض، وعاد إلى غرفته. استدعى هياكوجو وسأله عن سبب لفه للحصيرة قبل أن ينطق بكلمة واحدة. أجاب هياكوجو: "بالأمس قمت بليّ أنفي وكان ذلك مؤلماً للغاية". قال باسو: "أين كانت أفكارك شاردة؟" أجاب هياكوجو: "اليوم لم يعد الأمر مؤلماً". وبهذا أقر باسو بفهم هياكوجو.

هذه الأمثلة كافية لإظهار التغيرات التي تحدث في عقل المرء من خلال بلوغ الساتوري . قبل الساتوري ، كم كان هؤلاء الرهبان عاجزين! كانوا كالمسافرين التائهين في الصحراء. لكن بعد الساتوري يتصرفون كملوك مطلقين؛ لم يعودوا عبيداً لأحد، بل هم أنفسهم أسياد.

بعد هذه الملاحظات، يمكن ملاحظة النقاط التالية وتلخيصها فيما يتعلق بانفتاح العقل الذي يسمى الساتوري.

1. يتصور الناس في كثير من الأحيان أن ممارسة الزن هي إنتاج حالة من الإيحاء الذاتي من خلال التأمل. هذا الأمر يخطئ الهدف تماماً، كما يتضح من الأمثلة المختلفة المذكورة أعلاه. لا يكمن مفهوم "الساتوري" في خلق حالة معينة متعمدة من خلال التفكير فيها بشكل مكثف. إنها تكتسب وجهة نظر جديدة للنظر إلى الأمور. منذ ظهور الوعي، تم توجيهنا للاستجابة للظروف الداخلية والخارجية بطريقة مفاهيمية وتحليلية معينة. تتمثل ممارسة الزن في زعزعة هذا الأساس مرة واحدة وإلى الأبد وإعادة بناء الإطار القديم على أساس جديد تمامًا. من الواضح إذن أن التأمل في العبارات الميتافيزيقية والرمزية، التي هي نتاج وعي نسبي، لا تلعب أي دور في الزن.

2. بدون بلوغ الساتوري لا يمكن لأحد أن يدخل في حقيقة الزن. الساتوري هو الوميض المفاجئ للوعي بحقيقة جديدة لم تكن تخطر على بال أحد من قبل. إنها نوع من الكارثة العقلية التي تحدث دفعة واحدة، بعد تراكم الكثير من الأمور الفكرية والاستدلالية. لقد وصلت الركائز إلى حد التحمل وانهار المبنى بأكمله على الأرض، وعندها انفتحت سماء جديدة للرؤية الكاملة. عند الوصول إلى نقطة التجمد، يتحول الماء فجأة إلى جليد؛ يتحول السائل فجأة إلى جسم صلب ولا يعود يتدفق بحرية. تصادف الساتوري رجلاً على حين غرة، عندما يشعر بأنه قد استنفد كيانه بالكامل. دينياً، إنها ولادة جديدة؛ فكرياً، إنها اكتساب وجهة نظر جديدة. يبدو العالم الآن كما لو كان يرتدي ثوباً جديداً، يبدو أنه يغطي كل بشاعة الثنائية، والتي تسمى الوهم في المصطلحات البوذية.

3. الساتوري هو سبب وجود الزن، وبدونه لا يكون الزن زِنًا. لذلك فإن كل حيلة، تأديبية أو عقائدية، موجهة نحو الساتوري . لم يكن بإمكان أساتذة الزن أن يظلوا صبورين حتى يأتي الساتوري من تلقاء نفسه؛ أي أن يأتي بشكل متقطع أو حسب رغبته. في حرصهم على مساعدة تلاميذهم في البحث عن حقيقة الزن، صُممت عروضهم الغامضة بشكل واضح لخلق حالة ذهنية لدى تلاميذهم من شأنها أن تفتح الطريق إلى التنوير بشكل أكثر منهجية. لقد فشلت جميع البراهين الفكرية والمقنعات الحثية التي قام بها معظم الزعماء الدينيين والفلاسفة حتى الآن في إحداث التأثير المطلوب، وبالتالي انحرف أتباعهم أكثر فأكثر عن الصواب.

كان هذا هو الحال بشكل خاص عندما تم إدخال البوذية لأول مرة إلى الصين، بكل تراثها الهندي من التجريدات الميتافيزيقية للغاية وأنظمة اليوغا الأكثر تعقيدًا، مما ترك الصينيين الأكثر عملية في حيرة من أمرهم بشأن كيفية فهم النقطة المركزية لعقيدة شاكياموني. لاحظ بوديدهارما، البطريرك السادس، وباسو، وغيرهم من المعلمين الصينيين هذه الحقيقة، وكان إعلان وتطوير الزن نتيجة طبيعية لذلك. لقد وضعوا الساتوري فوق تعلم السوترا والمناقشات العلمية للشاسترات، وتم ربطه بالزن نفسه. لذلك، فإن الزن بدون الساتوري يشبه الفلفل بدون حدته. لكن هناك أيضاً ما يسمى بالتعلق المفرط بتجربة الساتوري، وهو أمر يستحق الكراهية.

4. إن هذا التأكيد على الساتوري في الزن يجعل من حقيقة أن الزن ليس نظامًا للدايانا كما هو ممارس في الهند ومن قبل المدارس البوذية الأخرى في الصين أمرًا بالغ الأهمية. يُفهم مصطلح "دايانا" عمومًا على أنه نوع من التأمل أو التفكير الموجه نحو فكرة ثابتة؛ في بوذية هينايانا كانت الفكرة هي الزوال، بينما في بوذية ماهايانا كانت في أغلب الأحيان عقيدة الفراغ. عندما يتم تدريب العقل بحيث يكون قادراً على إدراك حالة من الفراغ التام لا يبقى فيها أثر للوعي، حتى الشعور بعدم الوعي قد رحل؛ بعبارة أخرى، عندما يتم استئصال جميع أشكال النشاط العقلي من مجال الوعي، تاركاً العقل مثل السماء الخالية من كل ذرة سحاب، مجرد مساحة واسعة من اللون الأزرق، يقال إن الدايانا قد وصلت إلى كمالها. قد يُطلق على هذا اسم النشوة أو الغيبوبة، لكنه ليس زن. في الزن يجب أن يكون هناك الساتوري؛ يجب أن يكون هناك اضطراب عقلي عام يدمر التراكمات القديمة للفكر ويضع الأساس لحياة جديدة؛ يجب أن يكون هناك صحوة لحس جديد من شأنه أن يعيد النظر في الأشياء القديمة من زاوية ملاحظة لم تكن تخطر على بال أحد من قبل. لا يوجد شيء من هذه الأشياء في الدايانا (التأمل العميق)، لأنها مجرد تمرين لتهدئة العقل. وبالتالي، فإن للدايانا بلا شك مزاياها الخاصة، ولكن لا يجب ربط الزن بها.

5. الساتوري ليست رؤية الله كما هو، كما قد يزعم بعض المتصوفين المسيحيين. لقد أوضحت مدرسة الزن منذ البداية وأصرت على الفكرة الرئيسية، وهي النظر في عملية الخلق؛ قد يكون الخالق مشغولاً بتشكيل عالمه، أو قد يكون غائباً عن ورشته، لكن الزن يستمر في عمله الخاص. إنها لا تعتمد على دعم خالق؛ فعندما تدرك سبب عيش الحياة، فإنها تشعر بالرضا. اعتاد هوين (فا-ين، توفي عام 1104) من غو-سو-سان أن يُخرج يده ويسأل تلاميذه عن سبب تسميتها باليد. عندما نعرف السبب، يكون هناك الساتوري ونصل إلى الزن. أما مع إله التصوف، فهناك إدراك لشيء محدد؛ فعندما يكون لديك إله، يتم استبعاد ما ليس إلهاً. هذا مقيد ذاتيًا. يريد الزن الحرية المطلقة، حتى من الله. "لا مكان للاستقرار" تعني ذلك بالضبط؛ "نظف فمك عندما تنطق بكلمة بوذا" تعني الشيء نفسه. لا يعني ذلك أن الزن يريد أن يكون غير مقدس بشكل مرضي وغير إلهي، بل إنه يدرك عدم اكتمال مجرد الاسم. لذلك، عندما طُلب من ياكوسان (يوه شان، 751-834) إلقاء محاضرة، لم ينطق بكلمة واحدة، بل نزل من على المنبر وذهب إلى غرفته. سار هياكوجو بضع خطوات للأمام، ثم وقف ساكناً، ثم فتح ذراعيه، وكان ذلك بمثابة شرحه للمبدأ العظيم.

6. إن حالة الساتوري ليست حالة ذهنية مرضية، وليست موضوعًا مناسبًا لدراسة علم النفس غير الطبيعي. بل إنها حالة ذهنية طبيعية تماماً. عندما أتحدث عن اضطراب عقلي، قد يدفع ذلك البعض إلى اعتبار الزن شيئًا يجب على الناس العاديين تجنبه. هذا رأي خاطئ للغاية حول الزن، ولكنه للأسف رأي يتبناه في كثير من الأحيان النقاد المتحيزون. وكما أعلن جوشو، "الزن هو تفكيرك اليومي"؛ كل شيء يعتمد على ضبط المفصلة سواء كان الباب يفتح للداخل أو للخارج. حتى في غمضة عين يتغير كل شيء وتصبح في حالة من السكينة، وتصبح مثالياً وطبيعياً كما كنت دائماً. بل وأكثر من ذلك، فقد اكتسبت في هذه الأثناء شيئاً جديداً تماماً. ستعمل جميع أنشطتك العقلية الآن وفقًا لإيقاع مختلف، وهو ما سيكون أكثر إرضاءً وسلامًا وبهجة من أي شيء جربته من قبل. ستتغير طبيعة الحياة. هناك شيء منعش في امتلاك الزن. تبدو أزهار الربيع أجمل، ويجري جدول الجبل بشكل أكثر برودة وشفافية. لا يمكن وصف الثورة الذاتية التي تؤدي إلى هذه الحالة بأنها غير طبيعية. عندما تصبح الحياة أكثر متعة ويتسع نطاقها ليشمل الكون نفسه، فلا بد أن يكون هناك شيء ثمين للغاية في الساتوري يستحق أن يسعى المرء وراءه.

8

الكوآن[1]

الزن هو نتاج فريد للعقل الشرقي، وتكمن فرادته، من حيث الجانب العملي، في تدريبه المنهجي للعقل من أجل نضجه إلى حالة الساتوري، عندما يتم الكشف عن جميع أسراره. قد يُطلق على الزن شكلاً من أشكال التصوف، لكنه يختلف عن جميع أشكاله الأخرى في النظام، وفي الانضباط، وفي الغاية النهائية. أعني بذلك بشكل أساسي تمرين الكوآن والزازن.

زازن، أو ما يعادلها في اللغة السنسكريتية دايانا، تعني الجلوس متربعًا في هدوء وتأمل عميق. نشأت هذه الممارسة في الهند وانتشرت في جميع أنحاء الشرق. لقد استمر هذا الأمر عبر القرون، ولا يزال أتباع الزن المعاصرون يلتزمون به بدقة. في هذا الصدد، يعتبر الزازن الطريقة العملية السائدة للانضباط الروحي في الشرق، ولكن عندما يتم استخدامه بالاقتران مع الكوآن، فإنه يكتسب سمة خاصة ويصبح حكرًا على الزن.

إن شرح ماهية الزازن أو الدايانا بشكل كامل ليس هدف هذا الفصل، الذي يهتم بشكل أساسي بالكوآن باعتباره السمة الأساسية للزن التي تُمارس الآن في الشرق الأقصى. في الأصل، كانت دايانا في البوذية واحدة من فروعها الثلاثة للانضباط: سيلا (الوصايا الأخلاقية)، ودايانا (التأمل)، وبراجنا (الحكمة). من المفترض أن يكون البوذيون الجيدون ملتزمين أخلاقياً بجميع التعاليم التي وضعها بوذا، وأن يكونوا ملمين تماماً بأساليب السيطرة على أهوائهم المفرطة، وأخيراً أن يكونوا على قدر كافٍ من الذكاء[2]لمعرفة جميع تعقيدات المنطق في تقدم الميتافيزيقا البوذية. عندما يفتقر الرجل إلى أي من هذه المؤهلات، لا يمكن القول إنه تابع جيد لشاكياموني. لكن مع مرور الوقت حدث التمايز، وأصبح بعض البوذيين يركزون على أحد الجوانب الثلاثة بشكل أقوى من الجوانب الأخرى. كان بعضهم من دعاة الأخلاق أكثر من أي شيء آخر، وكان آخرون من طلاب الدايانا (التأمل)، بينما كان آخرون متفانين في إتقان الدقائق الفكرية التي تنطوي عليها تعاليم البوذية. قد يُعتبر أتباع الزن ممارسين للدايانا، ولكن في الزن لم تعد الدايانا تُفهم بمعناها البدائي؛ لأن الزن أصبح له الآن هدفه الخاص في ممارسة هذا الشكل الهندي المحدد من التمارين الروحية.

وفقًا لما ورد في كتاب ماهايانا شاسترا المذكور في كتاب دايانا باراميتا الذي شرحه تشي شا دايشي، مؤسس طائفة تيان تاي، فإن ممارسة دايانا تتم من أجل الوفاء بالعهود[3]الأربعة العظيمة التي يعتز بها كل بوذي متدين:

دايانا (التأمل) هو مخزن الحكمة الجيدة،

ومزرعة الفضائل السعيدة؛

مثل الماء الخالي من الشوائب،

دايانا (التأمل) يغسل كل غبار العاطفة؛

دايانا (التأمل) هي الدرع المصنوع من الفاجرا،

الذي يحمي من يرتديه من سهام الشهوات الشريرة؛

مع أنك ربما لم تصل بعد إلى حالة اللا فعل،

أنت بالفعل تقترب من النيرفانا؛

لأنك ستنال حالة فاجرا سامادهي،

ستحطمون العقبات والقيود، مهما كانت شاهقة الارتفاع.

ستحصل على القوى الست الخارقة،

وستكون قادراً على إنقاذ عدد لا يحصى من البشر؛

عندما يرتفع غبار الانزعاج عالياً لدرجة أنه يحجب الشمس السماوية،

قد تغسل الأمطار الغزيرة ذلك،

قد تزيلها رياح التنوير الفكري.

لكن دايانا (التأمل) هو الذي سيدمرها بالكامل.

تأتي كلمة *Dhyana* من الجذر *dhi*، الذي يعني "الإدراك" و"التأمل" و"تثبيت العقل"؛ في حين أن *dhi* من الناحية الاشتقاقية قد يكون لها بعض الصلة بـ *dha*، بمعنى "الإمساك" و"الحفظ" و"الصيانة". وبالتالي فإن دايانا (التأمل) تعني تجميع الأفكار وعدم السماح لها بالابتعاد عن مسارها المشروع؛ أي أنها تعني تركيز العقل على موضوع فكري واحد. لذلك، عند ممارسة الزن أو دايانا (التأمل)، يجب التحكم في جميع التفاصيل الخارجية بحيث يتم وضع العقل في الحالة الأكثر ملاءمة التي سيرتفع فيها تدريجياً فوق اضطراب الأهواء والشهوات. فعلى سبيل المثال، يجب تنظيم تناول الطعام والشراب بشكل صحيح؛ ولا ينبغي الإفراط في النوم؛ ويجب الحفاظ على الجسم في وضع مريح وسهل، ولكن مستقيم ومنتصب؛ أما بالنسبة للتحكم في التنفس، فإن الهنود، كما هو معروف، فنانون بارعون. بعد ذلك، يعد اختيار المكان الذي سيجلس فيه ممارس دايانا (التأمل) اعتبارًا مهمًا آخر، ومن الطبيعي أن يكون من الأفضل تجنب أماكن مثل السوق أو المصنع أو مكتب العمل. هناك العديد من القواعد أو الاقتراحات الأخرى المتعلقة بالتحكم في الجسد والعقل، والتي تم تناولها بالكامل في كتاب تشي-شا عن دايانا-باراميتا.[4]

كما يتضح حتى من هذا الوصف الموجز لـ دايانا (التأمل)، فإن الزازن كما يمارسها أتباع الزن ليس لها نفس الهدف كما هو الحال مع البوذيين بشكل عام. في الزن، يستخدم دايانا (التأمل) أو الزازن كوسيلة للوصول إلى حل الكوآن. لا يجعل الزن من دايانا (التأمل) غاية في حد ذاتها، لأنه بصرف النظر عن تمرين الكوآن، فإن ممارسة الزازن تعتبر اعتبارًا ثانويًا. لا شك أنها مصاحبة ضرورية لإتقان الزن؛ فحتى عندما يتم فهم الكوآن، فإن حقيقتها الروحية العميقة لن تترسخ في ذهن طالب الزن إذا لم يكن متدربًا بشكل كامل على الزازن. الكوان والزازن هما خادمتان للزن؛ الأولى هي العين والثانية هي القدم.

في الأيام الأولى للبوذية في الصين، اجتذبت المناقشات الفلسفية انتباه طلاب البوذية الجادين، وتمت ترجمة بعض السوترا مثل أفاتامساكا، وبونداريكا، وبراجنا باراميتا، ونيرفانا، وما إلى ذلك، إلى اللغة الصينية في وقت مبكر. لقد أثارت الأفكار الميتافيزيقية العميقة الواردة في هذه النصوص المقدسة اهتمام العلماء الصينيين أكثر من الأمور الأخرى التي كانت موجودة فيها أيضاً، وربما كان ذلك يعود بشكل رئيسي إلى كوتناراجيفا الذي لا يضاهى والذي أعطى دفعة كبيرة للبوذيين الصينيين نحو الإتقان الفكري للنصوص. ثم جاءت الدراسة الأخلاقية للبوذية. عندما جاء بودي دارما، البطريرك الأول للزن، إلى الصين في القرن السادس، تم النظر إليه بشيء من الشك باعتباره نوعًا من الهرطقة. لم يفهمه علماء الفلسفة البوذية وكرهوه. حتى عندما خرج يينو (هوي نينغ)، البطريرك السادس، من غياهب النسيان والاختباء الذاتي ليعلن نفسه الناقل الشرعي للزن، لم يلاحظه الممارسون الآخرون للدايانا بشكل كبير. حتى الآن، كانت ممارسة التأمل أو الزازن تتم بشكل رئيسي على طريقة الهينايانا، كما نقرأ في الكتابات السيرية للبوذية السابقة في الصين، وأيضًا كما يمكننا أن نستنتج من السوترا المتعلقة بالدايانا (التأمل) والتي تُرجمت حتى تلك الأيام. بعد جيل أو جيلين من ظهور مدرسة يينو، ظهرت مدرسة الزن، كما نفهمها الآن، والتي تطورت بعد ذلك بسرعة حتى طغت على جميع المدارس البوذية الأخرى. لا توجد حاليًا أي أديرة بوذية في الصين لا تنتمي إلى طائفة الزن،

ومعظمها من مدرسة رينزاي للزن.[5] أحد أسباب هذا الانتشار يكمن في ممارسة الزازن كوسيلة لإتقان الكوآن وبالتالي بلوغ الساتوري *(التنوير).*

Ko-an كوآن تعني حرفيًا "وثيقة عامة" أو "قانونًا ذا سلطة" - وهو مصطلح أصبح شائعًا في نهاية عهد أسرة تانغ. يشير الآن إلى بعض الحكايات القديمة لأحد المعلمين، أو حوار بين معلم ورهبان، أو بيان أو سؤال طرحه معلم، وكلها تستخدم كوسيلة لفتح عقل المرء على حقيقة الزن. في البداية، بالطبع، لم يكن هناك كوآن كما نفهمه الآن؛ إنه نوع من الأدوات الاصطناعية التي ابتكرها أساتذة الزن اللاحقون من فيض القلب، والذين بهذه الوسيلة أجبروا على تطور وعي الزن في عقول تلاميذهم الأقل موهبة.

قد ينمو العقل من تلقاء نفسه حتى عندما يُترك للطبيعة لتحقيق غاياتها، لكن الإنسان لا يستطيع دائماً انتظارها، فهو يحب التدخل سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ. إنه لا يتحلى بالصبر أبداً؛ فكلما سنحت له الفرصة للتدخل، فإنه يحرص على فعل ذلك. قد يكون التدخل مفيداً في بعض الأحيان، وغير مفيد على الإطلاق في أحيان أخرى. وكقاعدة عامة، الأمر يسير في كلا الاتجاهين. نرحب بالتدخل البشري عندما يكون هناك مكاسب أكثر من الخسائر ونسمي ذلك تحسينًا وتقدمًا؛ ولكن عندما يتبين خلاف ذلك، فإننا نسميه تراجعًا. الحضارة بشرية ومصطنعة؛ والبعض غير راضٍ عنها ويريد العودة إلى الطبيعة. حسناً، إن ما يسمى بالتقدم الحديث ليس بأي حال من الأحوال نعيمًا مطلقًا، ولكن بشكل عام، على الأقل من الناحية المادية للحياة، يبدو أننا في وضع أفضل هذه الأيام من أي وقت مضى، ونرى بعض علامات التحسن الإضافي. لذلك، فإن تذمرنا لا يتم التعبير عنه بقوة في الغالب.

وبالمثل، فإن إدخال نظام الكوآن في الزن، النقي والطبيعي والأساسي، هو في آن واحد تدهور وتحسين. لكن بمجرد ظهور هذا النظام، يبدو من الصعب جداً التخلص منه. كان من الطبيعي تماماً أن يفكر معلم الزن في إخوته الأقل حظاً الذين لم تكن مواهبهم الطبيعية غنية مثله، والذين من المحتمل بالتالي أن يفوتوا فرص الوصول إلى حقيقة الزن. أراد أن ينقل إليهم، إن أمكن، نفس النعيم الرائع للفهم الذي اكتسبه من خلال إتقان الزن. دفعه حسه الأمومي إلى التفكير في طريقة ما لفتح عقول تلاميذه أو حتى إجبارهم على اكتشاف جماليات الساتوري المجهولة، والتي، إذا تُركت لطرقهم الجاهلة، لن تصادفهم أبدًا إلا من خلال صدفة نادرة سعيدة. كان المعلم يعلم أن أسلوب الكوآن هو اصطناعية وحشو زائد؛ لأنه ما لم ينشأ الزن من النشاط الداخلي للإنسان، فلن يكون حقيقياً ومليئاً بالحيوية الإبداعية كما ينبغي أن يكون. لكن حتى مجرد الشبه سيكون نعمة عندما يكون الشيء الحقيقي صعبًا ونادرًا جدًا؛ وعلاوة على ذلك، فمن المحتمل، إذا تُرك الأمر لنفسه، أن يختفي تمامًا من تراث التجربة الإنسانية. إن التشابه ليس بالضرورة مجرد حل مؤقت، بل قد يحمل في طياته شيئًا حقيقيًا ومليئًا بالإمكانيات؛ لأن نظام الكوآن والزازن، عند استخدامه بشكل صحيح، يكشف العقل حقًا عن حقيقة الزن. فلماذا لا نتبناه ونعمل على تطويره إلى أقصى حد؟

في البداية، كان معلم الزن نوعًا من الرجال العصاميين؛ لم يتلق تعليمًا مدرسيًا، ولم يُرسل إلى الكلية ليجتاز مسارًا دراسيًا معينًا، ولكن بدافع من ضرورة داخلية ملحة أثارت روحه، لم يكن بوسعه إلا أن يتجول ويلتقط أي معرفة يحتاجها. لقد أتقن نفسه بنفسه. بالطبع، كان لديه معلم، لكن المعلم لم يساعده بالطريقة التي يساعد العلماء الطلاب في هذه الأيام - بل يتم مساعدته بشكل متكرر للغاية، يتجاوز الاحتياجات الفعلية للتلميذ، أكثر مما هو جيد له حقًا. إن هذا النقص في التعليم الناعم جعل معلم الزن القديم أقوى وأكثر حيوية. كان هذا هو السبب في أنها كانت نشطة للغاية، ومتألقة للغاية، ومكثفة للغاية في تلك الأيام الأولى من الزن - أي خلال عهد أسرة تانغ. عندما شاع نظام الكوآن خلال عهد أسرة سونغ، كانت أيام الزن الذهبية قد شارفت على الانتهاء، وبدأ يظهر تدريجياً علامات الانحدار والشيخوخة.

إليكم إذن أحد أوائل الكوآن التي تم تقديمها لطلاب العصر الحديث. عندما سأل الراهب ميو (مينغ) البطريرك السادس عن ماهية الزن، قال: "عندما لا ينشغل عقلك بثنائية الخير والشر، فما هو وجهك الأصلي قبل أن تولد؟" (أرني هذا "الوجه" وستدخل في سرّ الزن. من كنت قبل ولادة إبراهيم؟ عندما تجري مقابلة شخصية حميمة مع هذه الشخصية، ستعرف بشكل أفضل من أنت ومن هو الله. يُطلب من الراهب هنا أن يصافح هذا الرجل الأصلي، أو، إذا جاز التعبير، مع ذاته الداخلية.

عندما طُرح هذا السؤال على الراهب ميو، كان مستعداً عقلياً بالفعل لرؤية حقيقة الأمر. إن التساؤل ليس إلا ظاهرياً، إنه في الحقيقة تأكيد يهدف إلى فتح ذهن المستمع. لاحظ البطريرك أن عقل ميو كان على وشك أن ينكشف على حقيقة الزن. كان الراهب يتلمس طريقه في الظلام لفترة طويلة وبجدية؛ لقد نضج عقله، لدرجة أنه كان مثل ثمرة ناضجة لا تتطلب سوى هزة خفيفة لتسقط على الأرض؛ لم يكن عقله يحتاج إلا إلى لمسة أخيرة من يد المعلم. كان طلب "الوجه الأصلي" هو اللمسة الأخيرة الضرورية، وانفتح عقل ميو على الفور وأدرك الحقيقة. لكن عندما يُطرح هذا البيان في شكل سؤال حول "الوجه الأصلي" على مبتدئ لم يسبق له أن خضع لأي تدريب في الزن كما فعل ميو، فإنه عادة ما يُطرح بقصد إيقاظ ذهن الطالب إلى حقيقة أن ما قبله حتى الآن كحقيقة شائعة، أو كاستحالة منطقية، ليس بالضرورة كذلك، وأن طريقته السابقة في النظر إلى الأمور لم تكن دائمًا صحيحة أو مفيدة لرفاهيته الروحية. بعد إدراك ذلك، قد يتأمل الطالب في العبارة نفسها ويسعى للوصول إلى حقيقتها إن وجدت. إن إجبار الطالب على تبني هذا الموقف الاستقصائي هو هدف الكوآن. ثم يتعين على الطالب أن يواصل نهجه الاستقصائي حتى يصل إلى حافة هاوية عقلية، حيث لا توجد بدائل أخرى سوى القفز فوقها. إن تخلي الطالب عن آخر تمسكه بالحياة سيؤدي به إلى رؤية كاملة لـ "وجهه الأصلي"، كما هو مطلوب في بيان البطريرك السادس. وهكذا يتضح أن الكوآن لا يتم التعامل معه الآن بنفس الطريقة التي كان يتم بها في تلك الأيام السابقة. كما اقترح في البداية، كان ذلك بمثابة تتويج، إن صح التعبير، لكل ما كان يدور في ذهن الراهب ميو، الذي تلقى شرحه هنا نهايته النهائية؛ فبدلاً من أن يأتي في بداية تمرين الزن، كما هو الحال الآن، جاء سؤال البطريرك السادس في نهاية السباق. لكن في العصر الحديث، يُستخدم الكوآن كنقطة انطلاق؛ فهو يعطي حركة أولية للسباق نحو تجربة الزن. في البداية، تكون الحركة آلية إلى حد ما، ثم تكتسب النبرة اللازمة لنضوج وعي الزن؛ يعمل الكوآن كخميرة. عندما تتوافر الظروف الكافية، ينفتح العقل على نفسه في ازدهار كامل للساتوري. إن استخدام الكوآن بهذه الطريقة كوسيلة لفتح العقل على أسراره الخاصة هو سمة مميزة للزن الحديث.

اعتاد هاكوين أن يُخرج إحدى يديه ويطلب من تلاميذه أن يسمعوا صوتها. عادةً لا يُسمع الصوت إلا عند التصفيق بكلتا اليدين، وبهذا المعنى لا يمكن أن يصدر أي صوت من يد واحدة فقط. لكن هاكوين يريد أن يضرب في صميم تجربتنا اليومية، والتي تم بناؤها على أساس علمي أو منطقي. هذا التغيير الجذري ضروري من أجل بناء نظام جديد للأشياء على أساس تجربة الزن. ومن هنا جاء هذا الطلب غير الطبيعي وغير المنطقي على ما يبدو من هاكوين على تلاميذه. كان الكوآن الأول يدور حول "الوجه"، شيء للنظر إليه، بينما يدور الكوآن الثاني حول "الصوت"، شيء يجذب حاسة السمع؛ لكن المغزى النهائي لكليهما هو نفسه؛ فكلاهما يهدف إلى فتح الحجرة السرية للعقل، حيث يمكن للمخلصين أن يجدوا كنوزًا لا حصر لها مخزنة. إن حاسة الرؤية أو السمع لا علاقة لها بالمعنى الأساسي للكوآن؛ فكما يقول أساتذة الزن، فإن الكوآن ليست سوى قطعة من الطوب تُستخدم للطرق على البوابة، كإصبع السبابة الذي يشير إلى القمر. إن الغرض منه هو فقط توليف أو تجاوز - أياً كان التعبير الذي قد تختاره - ثنائية الحواس. طالما أن العقل غير حر في إدراك الصوت الناتج عن يد واحدة، فإنه يظل محدوداً ومنقسماً على نفسه. بدلاً من إدراك مفتاح أسرار الخلق، فإن العقل مدفون بشكل ميؤوس منه في نسبية الأشياء، وبالتالي في سطحيتها. إلى أن يتحرر العقل من القيود، لن يأتي الوقت أبداً لكي ينظر إلى العالم بأسره بأي قدر من الرضا. إن صوت يد واحدة في الواقع يصل إلى أعلى السماوات وكذلك إلى أدنى الجحيم، تمامًا كما ينظر وجه المرء الأصلي إلى مجال الخلق بأكمله حتى نهاية الزمان. يقف هاكوين والبطريرك السادس على نفس المنصة وأيديهما متشابكة.

لنذكر مثالاً آخر. عندما سُئل جوشو عن أهمية قدوم بوديدهارما إلى الشرق (وهو ما يُعتبر، من باب المجاز، بمثابة السؤال عن المبدأ الأساسي للبوذية)، أجاب: "شجرة السرو في الفناء".

قال الراهب: "أنت تتحدث عن رمز موضوعي".

"لا، أنا لا أتحدث عن رمز موضوعي."

ثم سأل الراهب مرة أخرى: "ما هو المبدأ النهائي للبوذية؟"

أجاب جوشو مرة أخرى: "شجرة السرو في الفناء".

يُعطى هذا أيضًا للمبتدئين على شكل كوآن.

من الناحية المجردة، لا يمكن القول إن هذا الكوآن غير منطقي تمامًا حتى من وجهة نظر الحس السليم، وإذا أردنا التفكير فيه، فربما يكون هناك مجال كافٍ للقيام بذلك. فعلى سبيل المثال، قد يعتبر البعض يد هاكوين الواحدة رمزاً للكون أو غير المشروط، وشجرة السرو الخاصة بجوشو تجسيداً ملموساً لأعلى مبدأ، والذي من خلاله يمكن التعرف على النزعة الواحدية للبوذية. لكن فهم الكوآن بهذه الطريقة الفكرية ليس هو الزن، كما أن هذا الرمز الميتافيزيقي غير موجود هنا على الإطلاق. لا ينبغي بأي حال من الأحوال الخلط بين الزن والفلسفة؛ فالزن له سببه الخاص للوقوف على قدميه، ويجب ألا يغيب عن الأذهان هذه الحقيقة أبداً؛ وإلا فإن بنية الزن بأكملها ستنهار. إن "شجرة السرو" ستبقى إلى الأبد شجرة سرو وليس لها علاقة بالواحدية أو أي "مذهب" آخر. لم يكن جوشو فيلسوفًا حتى بالمعنى الأوسع والأكثر شيوعًا؛ لقد كان معلمًا للزن بكل معنى الكلمة، وكل ما يخرج من شفتيه هو كلام نابع مباشرة من تجربته الروحية. لذلك، وبصرف النظر عن هذا القدر من "الذاتية"، على الرغم من أنه لا توجد في الواقع مثل هذه الثنائيات في الزن مثل الذات والموضوع، والفكر والعالم، فإن "شجرة السرو" تفقد أهميتها تمامًا. إذا كان بيانًا فكريًا أو مفاهيميًا، فقد نسعى جاهدين لفهم معناه من خلال سلسلة الأفكار المنطقية الواردة فيه، وقد نتصور أننا قد حللنا الصعوبة أخيرًا؛ لكن معلمي الزن سيؤكدون لك أنه حتى في ذلك الحين، لا يزال الزن على بعد ثلاثة آلاف ميل منك، وسوف تسمع روح جوشو تضحك عليك من خلف الستار، الذي فشلت في إزالته بعد كل شيء. يُقصد من الكوآن أن يُغذى في تلك الزوايا الخفية من العقل حيث لا يمكن لأي تحليل منطقي أن يصل إليها. عندما ينضج العقل بحيث يصبح متناغمًا مع إطار مشابه لإطار جوشو، سيتضح معنى "شجرة السرو"؛ وبدون مزيد من التساؤل ستكون مقتنعًا بأنك تعرف كل شيء الآن.

بعد وفاة معلمه، سُئل أحد تلاميذ جوشو المسمى كاكو-تيتسو-شي (تشويه تييه-تزو) عما إذا كان قد أدلى بالفعل بالتصريح المتعلق بشجرة السرو رداً على السؤال: "ما هو المبدأ الأساسي للبوذية؟" أعلن التلميذ دون تردد: "لم يقل سيدي ذلك الكلام قط". كان هذا تناقضًا مباشرًا مع الحقيقة؛ لأن الجميع كانوا يعلمون حينها أن جوشو هو من صنعه، والشخص الذي سأل كاكو-تيتسو-شي عنه لم يكن جاهلاً بذلك. كان هدفه من الاستجواب هو معرفة مدى فهم هذا التلميذ لجوشو لمعنى قصة شجرة السرو. لذلك، تابع السائل حديثه مع تيتسو قائلاً: "لكن هذا ما يؤكده الجميع، فكيف يمكنك إنكاره؟" أصر تيتسو قائلاً: "لم يقل سيدي ذلك قط؛ وسيكون من الأفضل لك ألا تنتقص منه بهذه الطريقة". يا له من تصريح جريء! لكن أولئك الذين يعرفون الزن يدركون أن هذا الإنكار القاطع هو الدليل القاطع على أن تيتسو قد فهم روح معلمه فهماً كاملاً. كان له زن لا جدال فيه. لكن من وجهة نظرنا المنطقية، لا يمكن لأي قدر من البراعة الفكرية أن يبرر إنكاره القاطع بحيث يمكن التوفيق بينه وبين الحقيقة الواضحة نفسها. لذلك، فإن الزن لا يرحم أولئك النقاد الذين يعتبرون قصة شجرة السرو تعبيراً عن نكهة الواحدية الماهايانية.

لذلك، وكما رأينا، فإن *(الكوآن)* هي عموماً من النوع الذي يسد جميع السبل الممكنة للعقلانية. بعد تقديم بعض العروض لوجهات نظرك في المقابلة مع المعلم، والتي تسمى تقنياً سان-زن، ستتصل بالتأكيد إلى نهاية مواردك، وهذا الوصول إلى طريق مسدود هو في الواقع نقطة البداية الحقيقية في دراسة الزن. لا يمكن لأحد أن يدخل في حالة الزن دون هذه التجربة. عند الوصول إلى هذه النقطة، يمكن اعتبار أن الكوآن قد أنجزت نصف الهدف الذي ترمز إليه.

وبعبارة تقليدية - وأعتقد أنه من الأسهل على القارئ العادي أن يرى الزن بهذه الطريقة - هناك زوايا غير معروفة في عقولنا تقع وراء عتبة الوعي المبني نسبياً. إن تسميتها بـ "اللاوعي" أو "فوق الوعي" ليس صحيحاً. تُستخدم كلمة "ما وراء" ببساطة لأنها مصطلح مناسب للغاية للإشارة إلى مكان وجودها. لكن في الواقع لا يوجد "ما وراء" ولا "تحت" ولا "فوق" في وعينا. العقل كيان واحد لا يتجزأ ولا يمكن تمزيقه إلى أجزاء. إن ما يسمى بالأرض المجهولة هو تنازل الزن لطريقتنا العادية في الكلام، لأنه أي مجال من مجالات الوعي المعروف لدينا يكون مليئًا بشكل عام بالحثالة المفاهيمية، وللتخلص منها، وهو أمر ضروري للغاية لنضوج تجربة الزن، يشير عالم النفس الزن أحيانًا إلى وجود منطقة لا يمكن الوصول إليها في عقولنا. على الرغم من أنه في الواقع لا توجد منطقة كهذه بمعزل عن وعينا اليومي، إلا أننا نتحدث عنها على أنها أسهل فهمًا بالنسبة لنا بشكل عام. عندما يكشف الكوآن عن كل العقبات التي تحول دون الوصول إلى الحقيقة المطلقة، ندرك جميعًا أنه لا يوجد، في نهاية المطاف، شيء مثل "الزوايا الخفية للعقل" أو حتى حقيقة الزن التي تبدو غامضة طوال الوقت.

إنّ الكوآن ليس لغزاً ولا تعليقاً بارعاً. له هدف محدد للغاية، وهو إثارة الشك ودفعه إلى أقصى حدوده. إن البيان المبني على أساس منطقي يمكن الوصول إليه من خلال عقلانيته؛ فأي شك أو صعوبة قد تكون لدينا بشأنه تتلاشى من خلال اتباع التيار الطبيعي للأفكار. من المؤكد أن جميع الأنهار ستصب في المحيط؛ لكن الكوآن هو جدار حديدي يقف في الطريق ويهدد بالتغلب على كل جهد فكري يبذله المرء لتجاوزه. عندما يقول جوشو "شجرة السرو في الفناء"، أو عندما يمد هاكوين يده، فلا توجد طريقة منطقية للالتفاف حول ذلك. تشعر وكأن مسار أفكارك قد توقف فجأة. تتردد، تشك، تشعر بالقلق والاضطراب، ولا تعرف كيف تخترق الجدار الذي يبدو منيعاً تماماً. عندما تصل إلى هذه الذروة، فإن شخصيتك بأكملها، وإرادتك الداخلية، وطبيعتك العميقة، المصممة على حسم الموقف، تلقي بنفسها دون أي تفكير في الذات أو اللاذات، أو في هذا أو ذاك، مباشرة وبلا تحفظ، على جدار الكوآن الحديدي. إن إلقاء كيانك بالكامل على الكوآن يفتح بشكل غير متوقع منطقة غير معروفة من العقل. فكرياً، هذا هو تجاوز حدود الثنائية المنطقية، ولكنه في الوقت نفسه تجديد، وإيقاظ إحساس داخلي يمكّن المرء من النظر في العمل الفعلي للأشياء. لأول مرة يصبح معنى الكوآن واضحاً، وبنفس الطريقة التي يعرف بها المرء أن الجليد بارد ومتجمد. العين ترى، والأذن تسمع، بالتأكيد، لكن العقل ككل هو الذي يمتلك الساتوري؛ إنه فعل إدراك، بلا شك، ولكنه إدراك من أعلى المستويات. وهنا تكمن قيمة مذهب الزن، إذ أنه يولد قناعة راسخة بأن هناك بالفعل شيئًا يتجاوز مجرد التفكير.

بمجرد اختراق جدار الكوآن وإزالة العوائق الفكرية بشكل جيد، تعود، إذا جاز التعبير، إلى وعيك اليومي المبني نسبياً. لا تصدر إحدى اليدين صوتاً حتى تصفق لها اليد الأخرى. تقف شجرة السرو منتصبة أمام النافذة؛ جميع البشر لديهم أنف مثبت عمودياً وعيون مرتبة أفقياً. أصبح الزن الآن أكثر الأشياء عادية في العالم. إن الحقل الذي كنا نظن سابقاً أنه يقع في مكان بعيد، أصبح الآن هو الحقل الذي نسير فيه، يوماً بعد يوم. عندما نخرج من حالة الساتوري (التنوير) نرى العالم المألوف بكل ما فيه من أشياء وأفكار متعددة بالإضافة إلى منطقيتها، ونعلن أنها "جيدة".

عندما لم يكن هناك نظام كوآن بعد، كان الزن أكثر طبيعية وربما أنقى، ولكن لم يكن سوى قلة مختارة هم من يستطيعون الدخول في روحه. لنفترض أنك عشت في تلك الأيام، ماذا كنت ستفعل لو تعرضت لهزة عنيفة من الكتف؟ كيف ستتقبل الأمر لو وصفك أحدهم بأنك شخص جاف لا يجيد سوى كشط التراب؟ أو ماذا لو طُلب منك ببساطة مناولة الوسادة إلى هناك، وعندما سلمتها إلى السيد، أن تُضرب بها؟ لو كان لديك تصميم قوي كالفولاذ على استكشاف أعماق الزن، وإيمان راسخ بالأرض في "معقولية" الزن، فربما تنجح، بعد سنوات عديدة من التأمل، في إتقان الزن؛ لكن مثل هذه الأمثلة نادرة في أيامنا الحديثة؛ فنحن منشغلون بأنواع مختلفة من الأعمال لدرجة أننا غير قادرين على السير بمفردنا في ممر متاهة الزن. في الأيام الأولى لسلالة تانغ، كان الناس أكثر بساطة في القلب وأكثر إيماناً، ولم تكن عقولهم مليئة بالتحيزات الفكرية. لكن هذا الوضع لم يكن ليدوم طويلاً، بطبيعته؛ وللحفاظ على حيوية الزن، كان من الضروري إيجاد وسيلة لجعل الزن أكثر سهولة وبالتالي أكثر شعبية؛ وكان لا بد من إرساء تمرين الكوآن لصالح الأجيال الصاعدة وكذلك للأجيال القادمة. على الرغم من أن جوهر الزن يكمن في أنه لا يمكن أن يكون ديناً شعبياً بالمعنى الذي هو عليه الحال بالنسبة للبوذية الشين أو المسيحية، إلا أن حقيقة حفاظه على سلسلة نقله دون انقطاع لقرون عديدة، في رأيي، يرجع أساساً إلى نظام الكوآن. في الصين، حيث نشاء الزن، لم تعد موجودا في شكله النقي؛ فقد انقطع خط النقل، وذلك بسبب اندماجه مع ممارسة الأرض الطاهرة المتمثلة في استحضار اسم بوذا. إن اليابان وحدها هي التي لا تزال فيها الزن قوية وتجد فيها مؤيديها الأرثوذكس؛ وهناك كل الأسباب للاعتقاد بأن هذا يرجع إلى نظام مراجعة الكوآن فيما يتعلق بممارسة الزازن. لا شك أن هذا النظام اصطناعي إلى حد كبير وينطوي على مخاطر جسيمة، لكن روح الزن تسري من خلاله عندما يتم التعامل معه بشكل صحيح. بالنسبة لأولئك الذين يسعون إليه بحكمة تحت إشراف معلم كفء حقًا، فإن تجربة الزن ممكنة، وستأتي حالة الساتوري بالتأكيد.

وهكذا يمكننا أن نرى أن تجربة الزن هذه هي شيء يمكن تحقيقه من خلال المرور بعملية تدريب معينة. أي أن تمرين الكوآن هو نظام تم إعداده بالتأكيد بهدف محدد. لا يشبه الزن أشكال التصوف الأخرى، التي تعتمد كلياً على الطبيعة العرضية أو تقلبات الحظ في تجربتها. وبالتالي فإن تنظيم الكوآن هو الشيء الأكثر تميزًا في الزن. وهذا ما ينقذ الزن من الغرق في حالة النشوة، ومن الانغماس في مجرد التأمل، ومن التحول إلى تمرين في التهدئة. يحاول الزن السيطرة على الحياة في فعلها الحياتي؛ أما إيقاف تدفق الحياة والنظر فيها فليس من شأن الزن. إن التواجد المستمر للكوآن أمام رؤيتنا الذهنية يبقي العقل مشغولاً دائماً؛ أي في حالة

نشاط كامل. يتم تحقيق الساتوري (التنوير) في خضم هذا النشاط وليس عن طريق قمعه، كما قد يتصور البعض. يمكننا الآن أن نرى بشكل أفضل مدى اختلاف الزن عن "التأمل" كما هو مفهوم وممارس بشكل عام، وذلك من خلال ما قيل أعلاه فيما يتعلق بطبيعة الكوآن.

بدأ تنظيم الزن في وقت مبكر من عهد الأسر الخمس في الصين - أي في القرن العاشر - ولكن اكتماله كان بفضل عبقرية هاكوين (1683-1768) الذي عاش في عصر توكوغاوا. مهما قيل ضد إساءة استخدام الكوآن، فإن الكوآن هو الذي أنقذ الزن الياباني من الفناء التام. انظر كيف حال الزن الصيني هذه الأيام؛ على حد علمنا، هو مجرد اسم إلى حد كبير؛ ولاحظ مرة أخرى الاتجاه العام الذي يظهر في ممارسة الزن من قبل أتباع مدرسة سوتو في اليابان المعاصرة. لا يمكننا إنكار وجود العديد من النقاط الجيدة في سوتو، والتي ينبغي دراستها بعناية، ولكن فيما يتعلق بتطبيق الزن، ربما يكون هناك نشاط أكبر في رينزاي، الذي يستخدم نظام الكوآن.

قد يقول المرء: "إذا كان الزن حقًا أبعد من المعرفة الفكرية كما تدعي، فلا ينبغي أن يكون هناك أي نظام فيه؛ في الواقع، لا يمكن أن يكون هناك أي نظام، لأن مفهوم النظام نفسه فكري. لكي يكون الأمر متسقاً تماماً، ينبغي أن يظل الزن تجربة مطلقة بسيطة تستبعد كل ما له علاقة بالعملية أو النظام أو الانضباط. لا بد أن يكون الكوآن زائدة، وشيء فائض، بل وتناقض." من الناحية النظرية، أو بالأحرى من وجهة النظر المطلقة، هذا صحيح تمامًا؛ لذلك، عندما يتم التأكيد على الزن "بشكل مباشر"، فإنه لا يعترف بأي كوآن ولا يعرف أي طريقة ملتوية لإعلان نفسه. مجرد عصا، أو مروحة، أو كلمة! حتى عندما تقول، "إنها عصا"، أو "أسمع صوتًا"، أو "أرى القبضة"، فإن الزن لم يعد موجودًا. يشبه الأمر وميض البرق، فلا يوجد مكان ولا وقت، في الزن حتى لتصور فكرة. لا نتحدث عن الكوآن أو النظام إلا عندما نصل إلى الجانب العملي أو التقليدي منه. كما قيل من قبل، فإن كتابة هذا العمل الحالي هي في الحقيقة نوع من التنازل والاعتذار والتسوية؛ بل هي بالأحرى عملية تنظيم كاملة للزن.

بالنسبة للغرباء، لا يبدو هذا "التنظيم" تنظيماً على الإطلاق، لأنه مليء بالتناقضات، وحتى بين أساتذة الزن أنفسهم هناك قدر كبير من التباين، وهو أمر مثير للقلق للغاية. ما يؤكده أحدهم ينكره الآخر بشكل قاطع أو يدلي بتعليق ساخر بشأنه، بحيث يكون غير المطلعين في حيرة من أمرهم بشأن كيفية التعامل مع كل هذه التشابكات الأبدية واليائسة. لكن الحقيقة هي أنه لا ينبغي النظر إلى الزن من ظاهره؛ فمصطلحات مثل النظام والعقلانية والاتساق والتناقض أو التنافر تنتمي إلى سطح الزن؛ لفهم الزن علينا أن نقلب قطعة الديباج بأكملها ونفحصها من الجانب الآخر، حيث يمكننا أن نتتبع بنظرة واحدة كل تعقيدات اللحمة والسدى. هذا التغيير في الترتيب ضروري للغاية في الزن.

دعونا نذكر مثالاً لنرى كيف يتم التعامل معه من قبل مختلف الأساتذة. قال فونيو، وهو معلم زن عظيم من سلالة تانغ: "إذا عرف الرجل ما هو هذا الصولجان، فإن دراسته للزن تنتهي". يبدو أن هذا الكوآن بسيط بما فيه الكفاية. يحمل المعلم عادةً عصا طويلة أصبحت الآن بمثابة رمز لسلطته الدينية، ولكن في العصور القديمة كانت في الواقع عصا سفر مفيدة في تسلق الجبال أو عبور الجداول. وباعتباره أحد أكثر الأشياء المألوفة، فإنها يُعرض في أي وقت من قبل المعلم أمام جماعته لتوضيح خطبة؛ وغالبًا ما يكون موضوع نقاش كبير بين الرهبان. يبدو أن تشو من روكوتان، وهو معلم زن آخر، قد عارض رأي المعلم السابق، فونيو، عندما أعلن قائلاً: "إذا عرف الرجل ما هي العصا، فسوف يذهب إلى الجحيم مباشرة كما يطير السهم". إذا كان هذا هو الحال، فلن يُغرى أحد بدراسة الزن؛ ولكن ماذا يعني تشو حقًا؟ هو-آن، وهو معلم زن آخر، يدلي بتصريح حول هذه العصا، وهو ليس تصريحًا متطرفًا؛ إنه عقلاني وبريء تمامًا عندما يقول: "إذا كان الرجل يعرف ما هي العصا، فليأخذها ويضعها على الحائط هناك". هل يؤكد هؤلاء الأساتذة جميعاً على نفس الحقيقة ويشيرون إلى نفس الواقع؟ أم أن الأمر لا يقتصر على الأقوال فحسب، بل يتناقض مع الواقع والحقيقة؟ دعونا ندرس المزيد من الأساتذة فيما يتعلق بالعصا.

وفي أحد الأيام صعد سويريو إلى المنبر وأخرج عصاه واعترف قائلاً: "إن إقامتي لمدة عشرين عاماً في هذا الدير تعود إلى فضل هذه".

تقدم راهب وسأل: "ما الفضيلة التي اكتسبتها من هذه؟"

"بهذه اتسند، وأعبر الجداول، وأجتاز الجبال؛ في الواقع، بدونها، ماذا عساي أن أفعل؟"

وفي وقت لاحق، قال شوكي، وهو معلم آخر، عندما سمع بهذا التصريح: "لو كنت مكانه، لما قلت ذلك".

"ماذا ستقول؟" جاء الرد سريعاً من الراهب.

ثم أخذ شوكي العصا، ونزل إلى الأرض، وانصرف.

ثم يعلق هو-آن على هذين المعلمين قائلاً: "كانت عصا سويريو جيدة جداً، ولكن يا للأسف!" لها رأس تنين وذيل ثعبان. هذا الأمر يدفع شوكي إلى اتباعه، والنتيجة مؤسفة أخرى: كان فعله أشبه بوضع بقع على نمر مطلي. عندما سأل الراهب عن قوة العصا التي حصل عليها، لماذا لم يخرجها ويرميها أمام الجماعة؟ حينها كان سيظهر تنين حقيقي، ونمر حقيقي، يستدعيان الغيوم والضباب.

والآن دعوني أسأل، لماذا كل هذا - لنقل - كل هذه الضجة حول لا شيء؟ إذا كان الزن الحديث نظاماً، فما نوع هذا النظام؟ يبدو الأمر فوضوياً، وكم هي متضاربة آراء الأساتذة! ومع ذلك، من وجهة نظر الزن، هناك تيار واحد يسري عبر كل هذه الالتباسات، وكل معلم يدعم الآخرين بطريقة بالغة التأكيد. إن التناقض الظاهر لا يعيق بأي حال من الأحوال التأييد الحقيقي. ومن خلال هذا التكامل المتبادل، ليس منطقياً في الواقع ولكن بطريقة مميزة للزن، نجد جوهر وحقيقة الكوآن. لا يمكن لتصريح غير فعال أن يحقق نتائج مثمرة. إن "يد هاكوين الواحدة"، و"شجرة السرو" الخاصة بجوشو، أو "الوجه الأصلي" [6] للبطريرك السادس، كلها حية في جوهرها. بمجرد أن تلمس جوهرها، سينهض الكون بأسره من قبره الذي دفناه فيه بمنطقنا وتحليلنا.

ولإفادة الطلاب الذين يرغبون في معرفة المزيد عن الكوآن التي تُعطى لطلاب الزن لحلها، تم تقديم بعضها هنا. عندما تلقى كيوسان مرآة من بيسان، أخرجها أمام مجموعة من الرهبان وقال: "أيها الرهبان، لقد أرسل بيسان مرآة إلى هنا؛ فهل تُسمى مرآة بيسان أم مرآتي؟" إذا كنت تسمّيها مرآتي، فكيف يكون أصلها من بيسان؟ إذا كنت تسميها ملكاً لبيسان، فكيف تفسر وجودها في يدي؟ إذا استطعت أن تدلي بتصريح يصيب الهدف، فستبقى المرآة؛ وإذا لم تستطع، فستتحطم إلى قطع. وقد أعلن ذلك ثلاث مرات، ولأن أحداً لم يتقدم للإدلاء بتصريح، فقد تم تدمير المرآة.

جاء توزان إلى أمون طلباً للتوجيه؛ فسأله الأخير:

"من أيّ مكانٍ أتيت؟"

"من ساتو".

"أين قضيت الصيف؟"

"في هوجي كونان."

"متى غادرت من هناك؟"

"في الخامس والعشرين من الشهر الثامن."

رفع أومون صوته فجأة وقال: "سأعفوك من ثلاثين ضربة. يمكنك الآن الانصراف."

وفي المساء ذهب توزان إلى غرفة أومون وسأله عن ذنبه، الذي كان خطيراً لدرجة أنه يستحق ثلاثين ضربة. قال المعلم: "هل هذه هي الطريقة التي تتجول بها في جميع أنحاء البلاد؟ يا لك من كيس أرز!"

كان بيسان يأخذ قيلولة عندما دخل كيوسان. عندما سمع بيسان صوت الزائر، استدار نحو الجدار.

قال كيوسان: "أنا تلميذك؛ لا حاجة لأي شكليات".

قام المعلم بحركة كما لو كان يستيقظ من النوم؛ بدأ كيوسان بمغادرة الغرفة، لكن المعلم ناداه للعودة. قال بيسان: "سأخبرك عن حلمي".

انحنى كيوسان إلى الأمام كما لو كان يستمع.

قال بيسان: "خمن أنت".

خرج كيوسان وأحضر وعاءً مملوءاً بالماء ومنشفة. غسل المعلم وجهه بالماء، ولكن قبل أن يعود إلى مقعده دخل راهب آخر يدعى كيوجين. قال المعلم: "لقد كنا نصنع معجزة - وليست معجزة تافهة على الإطلاق".

أجاب كيوجين: "لقد كنت في الأسفل وأعرف كل ما كان يجري بينكما".

"إذا كان الأمر كذلك، فأخبرني كيف هو"، هكذا طالب المعلم.

ثم أحضر له كيوجين كوبًا من الشاي.

قال بيسان: "يا أيها الراهبان، ما أذكاؤكما!" إن حكمتك وأعمالك المعجزة تفوق حقاً حكمة ساريبوترا ومودغاليانا!

توفي سيكيسو (شيه شوانغ) ورأى أتباعه أن كبير الرهبان يجب أن يخلفه. لكن كيوهو (تشين فنغ)، الذي كان مرافقًا للمعلم الراحل، قال: "انتظر، لدي سؤال، ويجب أن يكون الخليفة قادرًا على الإجابة عليه. كان المعلم القديم يعلمنا هكذا: "توقفوا عن كل رغباتكم؛ كونوا مثل الرماد البارد والنباتات الذابلة؛ أبقوا الفم مغلقًا بإحكام حتى ينمو العفن حوله؛ كونوا مثل الكتان الأبيض النقي، لا تشوبه شائبة؛ كونوا باردين وميتين مثل مبخرة في ضريح مهجور." كيف يُمكن فهم هذا؟"

"هذا"، قال رئيس الرهبان، "يوضح حالة من الفناء المطلق".

"هناك، أنت عاجز تماماً عن فهم المعنى."

"هل أفعل ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فأشعل عود بخور؛ إذا لم أفهم المعلم القديم حقاً، فلن أتمكن من الدخول في حالة غيبوبة قبل أن يحترق العود."

وبعد أن قال ذلك، دخل رئيس الرهبان في حالة من فقدان الوعي لم يستيقظ منها أبداً. قال كيوهو وهو يربت على ظهر زميله الراهب الراحل: "فيما يتعلق بالدخول في حالة النشوة، فقد أظهرت مثالاً رائعاً، ولكن فيما يتعلق بفهم المعلم القديم، فقد فشلت فشلاً ذريعاً". وهذا يوضح جيداً حقيقة أن الزن يختلف تماماً عن الانغماس في العدم.

يُقدر عدد الكوآن تقليديًا بـ 1700، وهي مع ذلك، طريقة سخية للغاية لحسابها. من الناحية العملية، قد يكون أقل من عشرة، أو حتى أقل من خمسة، أو حتى واحد فقط كافياً لفتح ذهن المرء على الحقيقة المطلقة للزن. لكن التنوير الكامل لا يتحقق إلا من خلال تطبيق العقل بأقصى درجات التضحية بالنفس، مدعومًا بإيمان راسخ بنهاية الزن. لا يمكن تحقيق ذلك بمجرد تسلق درجات الكوآن واحدة تلو الأخرى، كما هو معتاد لدى أتباع مدرسة رينزاي. لا علاقة للرقم بالأمر في الحقيقة؛ فالمتطلبات الضرورية هي الإيمان والجهد الشخصي، وبدونهما يصبح الزن مجرد فقاعة. أولئك الذين يعتبرون الزن مجرد تكهنات وتجريدات لن يصلوا أبداً إلى أعماقه، والتي لا يمكن إدراكها إلا من خلال أعلى درجات قوة الإرادة. قد يكون هناك المئات من الكوآن، أو قد يكون هناك عدد لا نهائي منها كما هو الحال مع العدد اللانهائي من الأشياء التي تملأ الكون، لكن هذا لا يعنينا بالضرورة. دع المرء فقط يكتسب نظرة شاملة ومرضية تمامًا للواقع الحي للأشياء، وسيتولى الكوآن حل نفسه.

وهنا يكمن خطر نظام الكوآن. قد يميل المرء إلى اعتباره كل شيء في دراسة الزن، ناسياً الهدف الحقيقي للزن، وهو الكشف عن الحياة الداخلية للإنسان. لقد وقع الكثيرون في هذا الفخ وكانت النتيجة الحتمية هي فساد وانحلال الزن. كان دايي (تا-هوي) متخوفًا جدًا من هذا الأمر عندما أحرق الكتاب الذي يحتوي على مائة كوآن والذي جمعه معلمه يينغو (يوان-وو). تم اختيار هذه الكوآن المئة من أدب الزن بواسطة سيكو (هسوه-تون)، الذي علق عليها بأبيات شعرية، بيت شعر لكل منها. كان دايي من أتباع الزن الحقيقيين. كان يعلم جيداً الهدف الذي كان معلمه يضعه نصب عينيه عندما أدلى بملاحظات حول هذه الاختيارات؛ وكان يعلم جيداً أيضاً أنها ستثبت لاحقاً أنها سلاح قاتل ضد الزن؛ لذلك ألقى بها جميعاً في النيران.

ومع ذلك، فقد نجا الكتاب من الحريق ولا يزال في حوزتنا كواحد من أهم الرسائل في علم الزن؛ بل إنه نص قياسي ومصدر موثوق، لا يزال يُلجأ إليه لتسوية نقاط الشك في دراسة الزن. يُعرف هذا العمل في اللغة اليابانية باسم هيكيجان-شو *((بيين تشي)*. بالنسبة للغرباء، إنه كتاب مغلق؛ ففي المقام الأول، لا يتبع الصينيون النموذج الكلاسيكي، بل إنهم مليئون بالعامية في عهدي تانغ وسونغ، والتي لا يمكن تتبعها الآن إلا في أدب الزن، في حين أنها مكتوبة بقوة شديدة. ثانياً، يتميز هذا النوع من الأعمال بأسلوبه الخاص، وتبدو أفكاره وتعبيراته غير متوقعة لدرجة أنها تذهل القارئ الذي يتوقع أن يجد فيه مصطلحات بوذية عادية أو على الأقل كلاسيكية معتدلة. إلى جانب هذه الصعوبات الأدبية، فإن كتاب هيكيجان مليء بطبيعة الحال بالزن. ومع ذلك، فإن أولئك الذين يرغبون في معرفة كيفية تعامل أتباع الزن مع الكوآن سيستفيدون كثيراً من الرجوع إلى الكتاب.

هناك بعض الكتب الأخرى التي تتناول الكوآن والتي تتبع إلى حد كبير أسلوب الهيكيجان؛ مثل شويوروكو، ومومونكوان، وكوايانكوكوجو، وما إلى ذلك. في الواقع، جميع كتابات الزن المعروفة باسم غوروكو *(وولو،* "الأقوال والحوارات") بالإضافة إلى السير الذاتية لأساتذة الزن، والتي لدينا قائمة كبيرة منها، تتعامل مع الكوآن بطريقة خاصة بالزن. لقد ترك كل معلم بارز تقريبًا كتاباته الخاصة *(غوروكو)*، والتي تشكل إلى حد كبير ما يُعرف بأدب الزن. في حين أن الدراسة الفلسفية للبوذية تزخر بجميع أنواع الشروح والتفسيرات والتحليلات التي غالباً ما تكون مفصلة ومعقدة للغاية، فإن الزن يقدم ملاحظات موجزة واقتراحات موجزة وتعليقات ساخرة، والتي تتناقض بشكل واضح مع ما سبق. ومن السمات الأخرى لأدب الزن ميله إلى الشعر: حيث يتم تقدير أو انتقاد الكوآن شعرياً. من بين هذه الأمثلة، يعد هيكيجان-شو *(بيين تشي)* أو شويو روكو *(تسونغ يونغ لو)* من الأمثلة الأكثر أهمية. الأولى من تأليف سيكو، كما ذكرنا سابقاً، والأخيرة من تأليف وانشي (هونغ-تشيه)، الذي يعلق أيضاً بشكل شعري على مجموعة مختلفة من الكوآن. يجد الزن تعبيره الأنسب في الشعر بدلاً من الفلسفة لأنه أكثر ارتباطاً بالشعور منه بالعقل؛ فميله الشعري أمر لا مفر منه.

9

قاعة التأمل و
حياة الراهب[1]

قاعة التأمل *(زيندو)* هي المكان الذي يقوم فيه الزن بتعليم رهبانه. إن رؤية كيفية تنظيمها تتيح لنا إلقاء نظرة خاطفة على الجانب العملي والانضباطي للزن. إنها مؤسسة فريدة من نوعها، ومعظم الأديرة الرئيسية في اليابان التابعة لطائفة الزن مزودة بها. في حياة رهبان الزن في قاعة التأمل، نتذكر حياة السانغا في الهند.

تم تأسيس هذا النظام من قبل المعلم الصيني في مدرسة الزن، هياكوجو (باي تشانغ، 720-814)، منذ أكثر من ألف عام. لقد ترك مقولة شهيرة كانت بمثابة المبدأ التوجيهي لحياته، وهي: "يوم بلا عمل هو يوم بلا أكل"، أي "لا أكل بدون عمل". [2] عندما اعتقد تلاميذه المخلصون أنه أصبح كبيرًا في السن على العمل في الحديقة، التي كانت مهنته المفضلة، قاموا بإخفاء جميع أدوات الحديقة الخاصة به، لأنه لم يكن يستمع إلى احتجاجاتهم المتكررة. ثم رفض تناول الطعام. "لا عمل، لا معيشة." في جميع قاعات التأمل، يُعد العمل، وخاصة ما يُعتبر عادةً عملاً وضيعاً، عنصراً حيوياً في حياة الراهب. وبالتالي، فإن ذلك يستلزم قدراً كبيراً من العمل اليدوي، مثل الكنس والتنظيف والطبخ وجمع الوقود وحراثة المزرعة أو التجول للتسول في القرى القريبة والبعيدة. لا يعتبر أي عمل أقل من كرامته، ويسود بينهم شعور تام بالأخوة. إنهم يؤمنون بقدسية العمل اليدوي؛ مهما كان العمل شاقاً أو وضيعاً، فلن يتهربوا منه، ويحافظون على أنفسهم بكل طريقة ممكنة؛ لأنهم ليسوا كسالى، كما هو حال بعض الرهبان أو المتسولين، كما هو الحال في الهند على سبيل المثال.

من الناحية النفسية، هذا أمر رائع؛ لأن النشاط العضلي هو أفضل علاج لكسل العقل الذي قد ينشأ عن عادة التأمل، ومن المرجح جدًا أن ينتج عن الزن هذا التأثير غير المرغوب فيه. تكمن المشكلة في معظم المتوحدين دينياً في أن عقولهم وأجسادهم لا تعمل بتناغم؛ فأجسادهم منفصلة دائماً عن عقولهم، والأخير عن الأول؛ إنهم يتوهمون أن هناك جسداً وهناك عقلاً وينسون أن هذا الفصل مجرد فكرة، وبالتالي فهو مصطنع. ولأن هدف مذهب الزن هو إلغاء هذا التمييز الأساسي، فإنه يحرص دائماً على تجنب أي ممارسة تميل إلى التأكيد على فكرة أحادية الجانب. إن الساتوري في الحقيقة تتمثل في الوصول إلى النقطة التي يتم فيها التخلص من جميع مفاهيمنا التمييزية، على الرغم من أن هذا ليس بأي حال من الأحوال حالة من الفراغ. إن خمول العقل الذي غالباً ما يكون نتاجاً للتأمل الهادئ، كما نرى، لا يؤدي على الإطلاق إلى نضوج الساتوري، وأولئك الذين يرغبون في التقدم في دراسة الزن يجب أن يكونوا حذرين دائماً في هذا الصدد خشية أن يوقف ذلك تماماً سيولة النشاط العقلي. هذا على الأقل أحد الأسباب التي تجعل أتباع الزن يعترضون على مجرد ممارسة الدايانا (التأمل). إن إبقاء الجسم مشغولاً سيبقي العقل مشغولاً أيضاً، وبالتالي نشيطاً وصحياً ومتيقظاً.

من الناحية الأخلاقية، فإن أي عمل ينطوي على بذل قوة بدنية يشهد على سلامة الأفكار. وهذا صحيح بشكل خاص في الزن؛ فالأفكار المجردة التي لا تنعكس بقوة وكفاءة في الحياة العملية تعتبر بلا قيمة. يجب اكتساب القناعة من خلال التجربة وليس من خلال التجريد. ينبغي أن يكون التأكيد الأخلاقي في كل مكان أعلى من الحكم الفكري؛ أي أن الحقيقة يجب أن تستند إلى تجربة المرء الحياتية. يؤكد أتباع الزن أن التأملات العابرة ليست من شأنهم. إنهم، بطبيعة الحال، يجلسون بهدوء ويمارسون الزازن؛ يجب القيام بذلك إذا أرادوا استيعاب أي دروس اكتسبوها أثناء العمل. لكن بما أنهم يعارضون "التأمل المتواصل" طوال الوقت، فإنهم يضعون موضع التنفيذ أي تأملات توصلوا إليها خلال ساعات من الجلوس الهادئ، وبالتالي يختبرون صحتها في المجال الحيوي للواقع. إنني على قناعة راسخة بأنه لو لم يضع دير الزن ثقته في العمل والحفاظ على تدفق دماء الرهبان، لكانت دراسة الزن قد انحدرت إلى مستوى مجرد نظام منوم ومسبب للغيبوبة، ولتم التخلص من جميع الكنوز التي جمعها الأساتذة في الصين واليابان باعتبارها لا قيمة لها أكثر من أكوام من الأشياء المتعفنة.

قاعة التأمل، أو زيندو كما تسمى في اليابان، هي مبنى مستطيل بأحجام مختلفة حسب عدد الرهبان الذين سيتم استيعابهم. يبلغ طول الدير الموجود في إنجاكوجي، كاماكورا، حوالي 35 × 65 قدمًا، وسيستوعب ما بين ثلاثين وأربعين راهبًا. المساحة المخصصة لكل راهب هي حصيرة واحدة (تاتامي)، أو حصيرة بقياس 3 × 6 أقدام، حيث يجلس ويتأمل وينام. لا تتجاوز كمية الفراش لكل شخص لحافًا كبيرًا محشوًا بحجم 5 × 6 أقدام تقريبًا، سواء كان ذلك شتاءً أو صيفًا. ليس لديه وسادة منتظمة باستثناء تلك المصنوعة مؤقتاً من ممتلكاته الخاصة. أما هذا الأخير، فهو لا شيء تقريبًا: فهو يتكون من كيسا (كاسايا) وكورومو (أردية الكهنة)، وبعض الكتب، وشفرة حلاقة، ومجموعة من الأوعية، وكلها محمولة في صندوق من الورق المعجن بحجم 13 × 10 × 3.5 بوصة تقريبًا. أثناء السفر، يتم حمل هذا الصندوق في المقدمة، معلقاً من الرقبة بحزام عريض. وبذلك تنتقل جميع ممتلكاته مع مالكها. "رداء واحد ووعاء واحد، تحت شجرة وعلى حجر" يصف بشكل بياني حياة الراهب في الهند. بالمقارنة مع ذلك، يجب القول إن الراهب الزيني الحديث يتمتع بوفرة من الإمداد. ومع ذلك، فإن رغباته تقل إلى الحد الأدنى، ولا يمكن لأحد أن يفشل في عيش حياة بسيطة، وربما أبسط حياة، إذا اتخذ من حياة الراهب الزيني قدوة له. تعتبر البوذية الرغبة في التملك واحدة من أسوأ الأهواء التي يميل البشر إلى أن يكونوا مهووسين بها. إن ما يسبب في الواقع كل هذا البؤس في العالم هو الدافع العالمي للاستحواذ. عندما تُشتهى السلطة، يطغى الأقوياء دائمًا على الضعفاء؛ وعندما تُطمع الثروة، يتصارع الأغنياء والفقراء دائمًا بسيوف العداء المرير. تندلع الحروب الدولية، وتزداد الاضطرابات الاجتماعية باستمرار، ما لم يتم استئصال هذا الدافع للحصول على الأشياء والاحتفاظ بها بشكل كامل. ألا يمكن إعادة تنظيم المجتمع على أساس مختلف تماماً عما اعتدنا رؤيته منذ بداية التاريخ؟ ألا يمكننا أن نأمل أبداً في وقف تكديس الثروة وتراكم السلطة لمجرد الرغبة في تعزيز النفوذ الفردي أو الوطني؟ يأسًا من اللاعقلانية المطلقة للشؤون البشرية، ذهب الرهبان البوذيون إلى الطرف الآخر وقطعوا أنفسهم حتى عن متع الحياة المعقولة والبريئة تمامًا. ومع ذلك، فإن المثل الأعلى للزن المتمثل في وضع ممتلكات الراهب في صندوق صغير هو احتجاج صامت، وإن كان غير فعال حتى الآن، ضد النظام الحالي للمجتمع.

في الهند، لا يأكل الراهب (بيكشو) في فترة ما بعد الظهر؛ فهو يأكل مرة واحدة فقط في اليوم؛ لأن فطوره، بالمعنى الأمريكي أو الإنجليزي، ليس فطورًا. من المفترض ألا يتناول الراهب الزيني وجبة مسائية، ولكن نظراً للضرورة المناخية التي لا يمكن تجاهلها، فإنه يتناول وجبة بطريقة ما، ولكن لتخفيف ضميره يسميها "طعاماً علاجياً". يتكون الإفطار، الذي يتم تناوله في الصباح الباكر جداً بينما لا يزال الظلام حالكاً، من عصيدة الأرز والخضراوات المخللة. الوجبة الرئيسية تكون في حوالي الساعة العاشرة صباحاً وتتكون من الأرز (أو الأرز المخلوط بالشعير) وحساء الخضار والمخللات. وفي فترة ما بعد الظهر، في تمام الساعة الرابعة، يتناولون ما تبقى من العشاء، ولا يتم إعداد أي طعام خاص. ما لم تتم دعوتهم للخروج أو تلقيهم معاملة خاصة في المنزل من قبل أحد الزبائن الكرماء، فإن وجباتهم تكون كما هو موضح أعلاه، عامًا بعد عام. الفقر والبساطة هما أساس حياتهم.

ومع ذلك، لا ينبغي لنا أن نستنتج أن الزهد هو مثال للحياة بالنسبة لرهبان الزن؛ لأنه فيما يتعلق بالأهمية النهائية للزن، فهو ليس الزهد ولا أي نظام أخلاقي آخر. وإذا بدا أنه يدعو إما إلى مذهب القمع أو مذهب الانفصال، فإن ذلك ليس إلا ظاهرياً، لأن الزن كمدرسة من مدارس البوذية العامة يرث إلى حد كبير كراهية الانضباط الزهدي الهندوسي. لكن الفكرة الأساسية في حياة الراهب ليست الإسراف بل الاستفادة القصوى من الأشياء كما هي معطاة لنا، وهو ما يمثل أيضاً روح البوذية في كل مكان. في الحقيقة، إن العقل والخيال وجميع القدرات العقلية الأخرى، بالإضافة إلى الأشياء المادية التي تحيط بنا، بما في ذلك أجسادنا، قد مُنحت لنا من أجل تنمية وتعزيز أعلى القدرات التي نمتلكها، وليس لمجرد إرضاء النزوات والرغبات الفردية، والتي من المؤكد أنها ستتعارض مع مصالح وحقوق الآخرين وتضر بها. هذه بعض الأفكار الداخلية التي تكمن وراء بساطة وفقر حياة الراهب.

عند وقت تناول الطعام، يُقرع جرس ويخرج الرهبان من الزيندو (قاعة التأمل) في موكب حاملين مجموعتهم الخاصة من الأوعية إلى غرفة الطعام، لكنهم لا يجلسون حتى يقرع الزعيم جرسًا. الأوعية التي يحضرها كل منهم مصنوعة من الخشب أو الورق ومطلية جيدًا؛ وعادة ما يكون عددها أربعة أو خمسة وتتداخل مع بعضها البعض مثل العش. يتم تلاوة السوترا (هريدايا سوترا) و"التأملات الخمسة"، ثم يقوم الرهبان الذين يعملون كنادلين بتقديم الحساء والأرز. هم الآن مستعدون لتناول طعامهم بعيدان الطعام، ولكن قبل أن يتناولوا عشاءهم الفاخر، يفكرون في تلك الأرواح الراحلة والكائنات الأخرى التي تعيش في هذا العالم وفي عوالم أخرى، ويأخذ كل منهم حوالي سبع حبات من الأرز من حصته ويقدمها إلى غير المرئيين. أثناء تناول الطعام،

يسود الهدوء التام؛ يتم التعامل مع الأطباق دون ضجيج، ولا تُنطق كلمة واحدة، ولا يدور أي حديث، ويتم التعبير عن جميع رغباتهم عن طريق طي أيديهم وفركها. تناول الطعام أمر بالغ الأهمية بالنسبة لهم. عندما يُطلب طبق آخر من الأرز، يمد الراهب يديه المطويتين، فيلاحظ النادل ذلك ويجلس مع وعاء الأرز أمام الجائع؛ فيأخذ الأخير طبقه، ويمرر يده برفق حول قاعه لمسح أي أوساخ قد تكون عالقة به ومن المحتمل أن تلوث يد النادل. أثناء ملء الوعاء، يبقي الشخص يديه مطويتين؛ ففرك راحتيه ببعضهما يدل على أن النادل قد وضع كمية كافية من الأرز أو الحساء في وعائه.

القاعدة هي أن يأكل كل راهب كل ما يقدم له، "ويجمع الفتات المتبقية"؛ لأن هذا هو دينهم. بعد تناول الحصة الثالثة أو الرابعة من الأرز، تنتهي الوجبة. يصفق الزعيم على المكعبات الخشبية ويحضر النُدُل الماء الساخن؛ يملأ كل راهب وعاءه الأكبر به، وفيه تُغسل جميع الأوعية الأخرى بعناية وتُمسح بالمنديل الصغير الذي يحمله. ثم يدور دلو خشبي لتلقي الفضلات؛ يجمع كل راهب أطباقه ويلفها مرة أخرى؛ أصبحت الطاولات الآن فارغة كما كانت من قبل باستثناء حبوب الأرز التي تم تقديمها في بداية الوجبة للكائنات غير المرئية. تُصفق الكتل الخشبية مرة أخرى، ويغادر الرهبان الغرفة بنفس الموكب الهادئ والمنظم الذي دخلوا به.

إن اجتهاد الرهبان أمرٌ معروف. عندما لا يكون اليوم مخصصًا للدراسة في المنزل، يُشاهدون عادةً بعد الإفطار بقليل، حوالي الساعة الخامسة والنصف في الصيف والسادسة والنصف في الشتاء، في أراضي الدير أو يحرثون المزرعة الملحقة بالزيندو. وفي وقت لاحق، تذهب بعض مجموعاتهم إلى القرى المجاورة للتسول من أجل الأرز. إنهم يحافظون على الدير، من الداخل والخارج، في حالة ممتازة. عندما نقول "هذا يشبه معبد الزن"، فهذا يعني أن المكان محفوظ بأفضل ترتيب ممكن. من الشائع أن يرتبط بمركز زيندو بعض المتبرعين الذين يتم زيارة منازلهم بانتظام للحصول على إمدادات من الأرز أو الخضراوات. عندما يتسولون، غالباً ما يذهبون إلى مسافات بعيدة؛ ويمكن رؤيتهم في كثير من الأحيان على طول طريق ريفي وهم يجرون عربة محملة بالقرع أو البطاطس أو الفجل الأبيض. يذهبون أحياناً إلى الغابات لجمع الوقود والحطب. إنهم يعرفون شيئاً عن الزراعة أيضاً. وبما أنهم مضطرون لإعالة أنفسهم، فهم في آن واحد مزارعون وعمال مهرة وعمال غير مهرة؛ وغالباً ما يبنون معابدهم الخاصة وغيرها من المباني تحت إشراف خبير. إن عملهم ليس عملاً روتينياً على الإطلاق؛ فهم يعملون بجد مثل العمال العاديين، وربما أكثر، لأن العمل بهذه الطريقة هو دينهم.

الرهبان هيئة ذاتية الحكم؛ لديهم طهاتهم، ومراقبيهم، ومديريهم، وحراسهم، ومسؤولي مراسمهم، وما إلى ذلك. على الرغم من أن سيد أو معلم الزيندو هو روحه، إلا أنه لا يهتم بشكل مباشر بإدارته، والتي تُترك لكبار أعضاء المجتمع، الذين تم اختبار شخصياتهم من خلال سنوات عديدة من الانضباط. عند مناقشة مبادئ الزن، قد يتعجب المرء من "ميتافيزيقا" عميقة ودقيقة ويتخيل مدى جدية هؤلاء الرهبان، ذوي الوجوه الشاحبة والرؤوس المنحنية، والذين ينسون العالم؛ ولكن في حياتهم الواقعية هم بشر عاديون جداً يمارسون أعمالاً وضيعة. إنهم مرحون، ويطلقون النكات، ومستعدون لمساعدة بعضهم البعض، ولا يحتقرون أي عمل يعتبر عادة وضيعاً وغير لائق بشخص مثقف. روح هياكوجو تتجلى هنا دائماً. وبذلك تتطور قدرات الرهبان بشكل شامل. إنهم لا يتلقون تعليمًا رسميًا أو أدبيًا، والذي يتم اكتسابه في الغالب من الكتب والتعليمات المجردة؛ ولكن ما يكتسبونه عملي وفعال، لأن المبدأ الأساسي لحياة الزيندو هو "التعلم بالممارسة". إنهم يحتقرون التعليم الناعم وينظرون إليه على أنه طعام مهضوم جزئياً مخصص للمرضى في فترة النقاهة. عندما تلد اللبؤة أشبالها، يُعتقد بشكل مجازي أنها بعد ثلاثة أيام تدفعهم من فوق جرف لترى ما إذا كان بإمكانهم الصعود إليها مرة أخرى. أولئك الذين لا يستوفون هذا الشرط لم يعد يتم الاهتمام بهم. سواء كان هذا صحيحاً أم لا، فإن شيئاً من هذا القبيل يهدف إليه معلم الزن، الذي غالباً ما يعامل رهبانه بكل أنواع القسوة الظاهرة. غالباً ما لا يملك الرهبان ما يكفي من الملابس للراحة، ولا ما يكفي من الطعام لإشباع الجوع، ولا ما يكفي من الوقت للنوم، وفوق كل ذلك، لديهم الكثير من العمل، سواء كان وضيعاً أو روحياً. إن هذه الضرورات الخارجية والتطلعات الداخلية، التي تعمل معًا على شخصية الراهب، غالبًا ما تؤدي إلى إنتاج نموذج رائع للإنسانية يسمى معلم الزن الكامل. إن هذا النظام التعليمي الفريد، الذي لا يزال قائماً في كل دير رينزاي زيندو، ليس معروفاً جيداً بين عامة الناس، على الرغم من وجود ميل حالي لدى هؤلاء للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الحياة في دير الزن. لكن المد الجارف للتجارة الحديثة والمكننة يجتاح الشرق بأكمله، بحيث لم يتبق سوى القليل من الزوايا للراحة والهدوء، وقبل وقت طويل قد تُدفن حتى هذه الجزيرة المنعزلة من الزن تحت أمواج المادية البغيضة. حتى الرهبان أنفسهم بدأوا يسيئون فهم روح الأساتذة الأوائل. على الرغم من أننا لا نستطيع إنكار حقيقة وجود

بعض الأشياء في هذا التعليم الرهباني التي يمكن تحسينها، إلا أنه يجب الحفاظ على روحه الدينية والتبجيلية العالية تجاه الحياة والعمل إذا أراد الزن أن يعيش لسنوات عديدة قادمة.

من الناحية النظرية، يشمل الزن الكون بأكمله ولا يخضع لقاعدة التضاد. لكن هذه أرض زلقة للغاية، وهناك الكثير ممن يفشلون في المشي منتصبين؛ وعندما يتعثرون تكون السقطة كارثية للغاية. مثل بعض المتصوفين في العصور الوسطى، يتحول طلاب الزن أحيانًا إلى منحلين، ويفقدون السيطرة على أنفسهم تمامًا؛ والتاريخ شاهد على ذلك، ويمكن لعلم النفس أن يفسر بسهولة عملية هذا الانحطاط. قال أحد أساتذة الزن ذات مرة: "دع مثال الإنسان يرتفع إلى تاج فيروتشانا (أعلى إله)، ولكن دع حياته تكون مليئة بالتواضع لدرجة أن يسجد حتى عند أقدام طفل رضيع". تخضع الحياة في دير الزن لأنظمة دقيقة ويتم تطبيق جميع التفاصيل في طاعة صارمة للروح المذكورة أعلاه. هذا ما أنقذ الزن من الانحدار إلى مستوى بعض المتصوفين في العصور الوسطى، ولهذا السبب يلعب الزندو دورًا كبيرًا في تعليم الزن.

عندما توقف تانكا (تان-هسيا) من سلالة تانغ في بيرينجي بالعاصمة، كان الجو بارداً جداً؛ لذلك قام بإنزال أحد تماثيل بوذا الموجودة هناك، وأشعل ناراً منها ودفأ نفسه. فغضب حارس المعبد غضباً شديداً عندما رأى ذلك، وصاح قائلاً:

"كيف تجرؤ على حرق تمثالنا لبوذا الخشبي؟"

بدأ تانكا يبحث في الرماد كما لو كان يبحث عن شيء ما، وقال:

"أنا أجمع ساريراس[3] المقدسة من الرماد المحترق."

قال الحارس: "كيف يمكنك الحصول على ساريراس من تمثال بوذا خشبي؟"

رد تانكا قائلاً: "إذا لم يكن هناك أي ساريراس في ذلك، فهل يمكنني الحصول على البوذين المتبقيين لناري؟"

فقد حارس الضريح حاجبيه لاحقاً بسبب احتجاجه على هذا الكفر الظاهر لتانكا، بينما لم ينزل غضب بوذا على الأخير.

على الرغم من أنني أشك في دقتها التاريخية، إلا أن هذه القصة جديرة بالذكر ويتفق جميع أساتذة الزن على الإنجازات الروحية لهذه القصيدة لتانكا التي تدنس بوذا. عندما سأل راهبٌ معلمه ذات مرة عن فكرة تانكا بحرق تمثال بوذا، أجاب المعلم:

"عندما يبرد الجو، نجلس حول الموقد ونشعل النار."

"عندما يكون الجو حاراً، نذهب إلى بستان الخيزران بجانب الجدول."

"هل كان هو المخطئ أم لا؟"

بغض النظر عن قيمة تانكا من وجهة نظر الزن البحتة، فليس هناك شك في أن مثل هذه الأفعال التي تقوم بها تانكا تعتبر تدنيسًا شديدًا للمقدسات ويجب تجنبها من قبل جميع البوذيين المتدينين. أولئك الذين لم يكتسبوا بعد فهمًا كاملاً للزن قد يذهبون إلى أقصى الحدود لارتكاب كل أنواع التجاوزات وحتى الجرائم - وذلك باسم الزن؛ ولهذا السبب فإن لوائح الدير صارمة للغاية حتى يزول كبرياء القلب ويُشرب كأس التواضع حتى الثمالة.

عندما كان شوكو (تشو-هونغ) من سلالة مينغ يكتب كتابًا عن الأعمال العشرة الجديرة بالثناء للراهب، جاء إليه أحد هؤلاء الرجال المتغطرسين قائلاً:

"ما فائدة كتابة مثل هذا الكتاب في حين أنه لا يوجد في الزن حتى ذرة من شيء يمكن وصفه بأنه جدير بالثناء أو غير جدير بالثناء؟"

أجاب شوكو: "إن المجموعات الخمس *(سكاندها)* متشابكة، والعناصر الأربعة *(ماهابوتا)* تنتشر بشكل كبير، فكيف يمكنك القول إنه لا توجد شرور؟"

لكن الراهب أصرّ قائلاً: "العناصر الأربعة كلها فارغة في نهاية المطاف، والمجموعات الخمسة ليس لها أي وجود على الإطلاق".

قال شوكو، وهو يصفعه على وجهه: "الكثيرون مجرد متعلمين؛ أنت لست الشخص الحقيقي بعد؛ أعطني إجابة أخرى".

لكن الراهب لم يُجب وبدأ بالابتعاد وهو يشعر بالغضب.

قال المعلم مبتسماً: "ها أنت ذا، لماذا لا تمسح التراب عن وجهك؟"

في دراسة الزن، يجب أن تترافق قوة البصيرة الشاملة مع شعور عميق بالتواضع وضعف القلب.

هناك فترة في الحياة الرهبانية مخصصة بشكل حصري للانضباط العقلي للرهبان، حيث لا يعيقهم أي عمل يدوي إلا ما هو ضروري للغاية. وتعرف هذه الفترة باسم سيشين. يحدث ذلك عدة مرات، كل مرة تستمر لمدة أسبوع، في الموسم المعروف باسم "الإقامة الصيفية" *(ge-ango)*، ومرة أخرى في الموسم المعروف باسم "الإقامة الشتوية" *(setsu-ango)*. بشكل عام، تبدأ الإقامة الصيفية في أبريل وتنتهي في أغسطس، بينما تبدأ الإقامة الشتوية في أكتوبر وتنتهي في فبراير. تعني كلمة *"سيشين"* "جمع أو تركيز العقل". خلال فترة هذه السيشين، يبقى الرهبان محصورين في قاعة الزيندو، ويستيقظون في وقت أبكر من المعتاد ويجلسون حتى وقت متأخر من الليل. هناك "محاضرة" *(كوزا أو تيشو)* كل يوم خلال فترة سيشين. قد يكون الكتاب المدرسي المستخدم أيًا من كتب الزن مثل هيكيجانشو، رينزيروكو، مومونكوان، كيدوروكو، كوايان كوكوجو، إلخ. رينزيروكو عبارة عن مجموعة من الخطب أو الأقوال لمؤسس طائفة رينزاي زن. كما ذكرنا سابقاً، فإن كتاب هيكيجانشو عبارة عن مجموعة من مائة من الكوآن مشروحة ومفسرة ومقدرة؛ وكتاب مومونكوان هو أيضاً مجموعة من الكوآن، عددها ثمانية وأربعون كوآن، مع تعليقات خاصة بالزن، وهو أبسط بكثير من كتاب هيكيجان. يحتوي كتاب كيدوروكو على الأقوال والخطب والقصائد وغيرها من الأعمال التي ألفها كيدو (هسو تانغ) من سلالة سونغ. كان معلماً لداي-أو كوكوشي، الذي لا يزال خطه في نقل تعاليم الزن مزدهراً في اليابان. كتاب كويان-كوكوجو هو عبارة عن تجميع قام به هاكوين لخطب دايتو كوكوشي وأبيات التعليق النقدي على بعض الأساتذة القدامى. بالنسبة للقارئ العادي، تعتبر هذه الكتب بمثابة نوع من الظلمة لكل ظلام. بعد الاستماع إلى سلسلة من المحاضرات، قد يبقى الراهب في نفس المأزق الذي كان عليه دائماً ما لم يفتح عينيه على حقيقة الزن. لا يرجع هذا الغموض بالضرورة إلى الطبيعة الغامضة للكتب، ولكن لأن عقل المستمع لا يزال مغطى بقشرة صلبة من الوعي النسبي.

خلال فترة سيشين، بالإضافة إلى المحاضرات، يمارس الرهبان ما يُعرف باسم *"سانزين"*. إن القيام بـ*"سانزين"* يعني الذهاب إلى المعلم وعرض وجهات نظرهم حول *"الكوآن"* التي لديهم ليقوم المعلم بفحصها بشكل نقدي. في الأيام التي لا تُعقد فيها جلسة سيشين كبيرة، من المحتمل أن تُعقد جلسة سانزين مرتين في اليوم، ولكن خلال الوقت الخاص بـ "جمع الأفكار" - وهو معنى جلسة سيشين - يتعين على الراهب أن يرى المعلم أربع أو خمس مرات في اليوم. لا تتم هذه المقابلة مع المعلم علنًا؛ إذ يُطلب من الراهب أن يذهب بشكل فردي إلى غرفة المعلم، حيث تجري المقابلة بطريقة رسمية وجليلة للغاية. عندما يكون الراهب على وشك عبور العتبة، ينحني ثلاث مرات، وفي كل مرة يسجد على الأرض؛ ثم يدخل الغرفة واضعاً يديه متلاصقتين أمام صدره، وعندما يقترب من المعلم يركع ويسجد مرة أخرى. بعد انتهاء هذا الحفل، لا يتم التطرق إلى أي اعتبارات دنيوية أخرى؛ وإذا لزم الأمر من وجهة نظر الزن، فقد يتم تبادل الضربات. إن إظهار حقيقة الزن بكل صدق القلب هو الاعتبار الوحيد؛ أما كل شيء آخر فلا يحظى إلا باهتمام ثانوي. بعد انتهاء العرض، يغادر الراهب الغرفة بنفس الاحتفال المتقن الذي دخل به. قد يكون هذا التمرين صعباً للغاية على المعلم، لأن جلسة سانزين واحدة لثلاثين راهباً ستستغرق أكثر من ساعة ونصف من الاهتمام الشديد.

يتم وضع ثقة مطلقة في المعلم بقدر ما يتعلق الأمر بفهمه للزن، ولكن إذا اعتقد الراهب أن لديه سببًا كافيًا للشك في قدرة المعلم، فقد يحسم الأمر معه شخصيًا في وقت السانزين. لذا، فإن عرض هذه الآراء ليس مجرد لعب عبثي بالنسبة للمعلم أو الراهب. إنها بالفعل مسألة بالغة الخطورة، ولأنها كذلك، فإن هذا النهج في الزن له قيمة أخلاقية عظيمة. ولتوضيح ذلك، دعونا نتناول حادثة من حياة هاكوين، مؤسس رينزاي زن الحديث في اليابان.

في إحدى أمسيات الصيف، عندما جاء هاكوين ليعرض وجهة نظره على معلمه القديم، الذي كان يبرد نفسه على الشرفة، قال المعلم بفظاظة: "هراء وسخافات!" كرر هاكوين بصوت عالٍ: "هراء وسخافات!" عندها أمسك به المعلم، وصفعه على أذنه، ثم دفعه أخيراً من الشرفة. بسبب هطول الأمطار، وجد هاكوين المسكين نفسه يتدحرج في الوحل والماء. عندما استعاد وعيه، عاد إلى الشرفة وانحنى أمام المعلم، الذي رد قائلاً: "يا ساكن الكهف المظلم!"

وفي يوم آخر، ظن هاكوين أن المعلم لم يقدر حقاً مدى معرفته العميقة بالزن، فرغب في التوصل إلى تسوية معه على أي حال. عندما حان الوقت، دخل هاكوين غرفة المعلم واستنفد كل براعته في منافسته، عازماً هذه المرة على عدم التنازل عن شبر واحد من الأرض. غضب المعلم بشدة، وفي النهاية أمسك بهاكوين وصفعه عدة صفعات ودفعه من الشرفة. سقط عدة أقدام عند قاعدة جدار حجري، حيث بقي لبعض الوقت فاقداً للوعي تقريباً. نظر إليه المعلم وضحك من أعماق قلبه؛ مما أعاد هاكوين إلى وعيه، وعندما عاد إلى المعلم كان غارقاً في العرق. لكن المعلم لم يطلق سراحه بعد، بل وصمه كما كان من قبل، "يا ساكن الكهف المظلم!"

لقد شعر هاكوين باليأس وفكر في ترك المعلم القديم تمامًا، إلى أن جاء يوم بينما كان يتسول في القرية، فتح حادث معين عينيه فجأة على حقيقة الزن، التي كانت مخفية عنه تمامًا حتى ذلك الحين. لم يكن لفرحه حدود، وعاد إلى معلمه في حالة ذهنية سامية للغاية. قبل أن يتمكن من دخول البوابة الأمامية، أدرك المعلم أن شيئًا ما قد حدث له، فأشار إليه قائلاً: "ما هي الأخبار السارة التي أحضرتها معك إلى المنزل اليوم؟ ادخل مباشرة، كن سريعاً، سريعاً!" ثم أخبره هاكوين بكل ما مر به خلال اليوم. ربت المعلم برفق على ظهره وقال: "لقد حصلت عليه الآن؛ لقد حصلت عليه أخيرًا!" بعد ذلك لم يعد المعلم يناديه بألقاب سيئة.

هكذا كان التدريب الذي خضع له أبو الزن الياباني الحديث. كم كان سيده القديم، شوجو، قاسياً للغاية عندما دفع هاكوين فوق الجدار الحجري! لكن كم كان حنوناً كالأم عندما خرج تلميذه منتصراً بعد كل هذا العناء! في الحقيقة، لا يوجد شيء فاتر في الزن؛ إذا كان فاتراً، فهو ليس زن. إنه يتوقع من المرء أن يخترق أعماق الحقيقة، ولا يمكن إدراك الحقيقة إلا بعد تجريدها من كل الزيف، سواء كان فكريًا أو غير ذلك، والعودة إلى عريه الفطري. كل صفعة وجهها شوجو جردت هاكوين من أوهامه ونفاقه. في الحقيقة، نحن جميعاً نعيش تحت طبقات عديدة من الأوهام والنفاق التي لا علاقة لها بجوهرنا الداخلي. للوصول إلى هذا الذات الداخلية، والتي من خلالها يكتسب التلميذ المعرفة الحقيقية للزن، يلجأ المعلم في كثير من الأحيان إلى أساليب تبدو غير إنسانية؛ بل إنها بعيدة كل البعد عن أن تكون رحيمة القلب على أقل تقدير.

لا توجد فترة تخرج محددة في حياة الزيندو كما هو الحال في التعليم العام. قد لا يتحقق التخرج عند البعض بعد عشرين عامًا من العيش هناك، ولكن بفضل القدرات العادية وقدر كبير من المثابرة وعدم الكلل، يستطيع الراهب أن يتعمق في كل تفاصيل تعاليم الزن في غضون عشر سنوات. أما ممارسة مبادئ الزن في كل لحظة من لحظات الحياة - أي أن تصبح مشبعًا تمامًا بروح الزن - فهذا أمر آخر. قد تكون حياة واحدة قصيرة جدًا لذلك؛ لأنه يقال إن شاكياموني ومايتريا أنفسهما لا يزالان في خضم التدريب الذاتي.

لكي تصبح معلماً مؤهلاً تماماً، فإن مجرد فهم حقيقة الزن لا يكفي. يجب أن يمر بفترة تُعرف باسم "النضج الطويل للرحم المقدس". لا بد أن المصطلح قد جاء في الأصل من الطاوية؛ ولكن في الزن اليوم يعني، بشكل عام، عيش حياة متناغمة مع الفهم. تحت إشراف معلم كفء، قد يصل الراهب في النهاية إلى معرفة شاملة بجميع أسرار الزن، لكنها ستكون فكرية إلى حد ما وإن كانت بأعلى معنى ممكن. يجب أن تنمو حياة الراهب، داخلياً وخارجياً، بتناغم تام مع هذا الإنجاز. وللقيام بذلك، من الضروري إجراء المزيد من التدريب الذاتي، لأن ما اكتسبه في الزيندو ليس في النهاية سوى توجيه أصابع الاتهام إلى الاتجاه الذي يجب أن

يبذل فيه أقصى جهوده. لكن لم يعد من الضروري بالنسبة له البقاء في الزيندو؛ بل على العكس من ذلك، يجب اختبار إنجازاته الفكرية من خلال الاحتكاك الفعلي بالعالم. لا توجد قواعد محددة لهذا "النضج". يجب على كل فرد أن يتصرف وفقاً لتقديره الخاص عندما يواجه الظروف العرضية للحياة. قد يعتزل في الجبال ويعيش كناسك منعزل، أو قد يخرج إلى السوق ويكون مشاركاً نشطاً في جميع شؤون العالم. ويُقال إن البطريرك السادس عاش بين سكان الجبال لمدة خمسة عشر عامًا بعد أن ترك البطريرك الخامس. كان غير معروف تماماً في العالم عندما عاد لأول مرة للاستماع إلى محاضرة ألقاها إينشو (ين تسونغ). أمضى تشو (تشونغ)، المعلم الوطني، أربعين عاماً في نانغ يانغ ولم يظهر نفسه قط في المدينة. لكن حياته المقدسة أصبحت معروفة على نطاق واسع وقريب، وبناءً على طلب الإمبراطور الجاد، غادر كوخه في النهاية. أمضى ييسان (كوي شان) عدة سنوات في البرية، يعيش على المكسرات ويصادق القرود والغزلان. لكن تم اكتشاف أمره، وتم بناء أديرة عظيمة حول مرساه، وأصبح سيدًا لألف وخمسمائة راهب. عاش كوانزان، مؤسس معبد ميوشينجي العظيم في كيوتو، في البداية حياة التقاعد في مقاطعة مينو، حيث كان يعمل لدى القرويين كعامل يومي. لم يتعرف عليه أحد حتى كشف حادث ما عن هويته، وأصرت المحكمة على أن يؤسس ديرًا في العاصمة.

في بداية حياته المهنية، كان هاكوين حارسًا لمعبد مهجور في سوروجا، والذي كان إرثه الوحيد في العالم. يمكننا أن نتخيل لأنفسنا مدى تدهوره عندما نقرأ هذا الوصف: "لم تكن هناك أسقف بالمعنى الصحيح للكلمة، وكانت النجوم تضيء من خلالها في الليل، ولم تكن هناك أرضيات لائقة". كان من الضروري ارتداء قبعة واقية من المطر وأحذية غيتا عالية إذا هطل المطر أثناء وجود أي شيء يحدث في الجزء الرئيسي من المعبد. كانت جميع الممتلكات التابعة للمعبد في أيدي الدائنين، وكانت ممتلكات الكهنة مرهونة للتجار.

يقدم تاريخ الزن العديد من الأمثلة على المعلمين العظماء الذين ظهروا في العالم بعد فترة من التقاعد. الفكرة ليست ممارسة الزهد، بل هي "نضج" الشخصية الأخلاقية، كما تم تحديده بشكل صحيح. تنتظر العديد من الأفاعي والثعابين عند الشرفة، وإذا فشل المرء في سحقها بشكل فعال فإنها ترفع رؤوسها مرة أخرى، وقد ينهار صرح الثقافة الأخلاقية بأكمله الذي تم بناؤه في الرؤية في يوم واحد. كما أن التمرد على القواعد يمثل مأزقاً لأتباع الزن، الأمر الذي يتطلب يقظة مستمرة.

لا شك أن هذا النوع من التعليم الرهباني السائد في الزيندو متخلف عن العصر من بعض النواحي؛ لكن مبادئه التوجيهية، مثل تبسيط الحياة، وكبح الرغبات، وعدم إضاعة لحظة ببرود، والاستقلال الذاتي، وما يسمونه "الفضيلة السرية"، سليمة لجميع الأراضي وفي جميع العصور. وينطبق هذا بشكل خاص على مفهوم "الفضيلة السرية"، وهو سمة مميزة للغاية لمنهج الزن. وهذا يعني عدم إهدار الموارد الطبيعية؛ ويعني الاستفادة الكاملة، اقتصادياً وأخلاقياً، من كل ما يأتي في طريقك؛ ويعني معاملة نفسك والعالم بأكثر درجات التقدير والتبجيل. ويعني ذلك على وجه الخصوص ممارسة الخير دون أي تفكير في التقدير من الآخرين. طفل يغرق؛ أدخل الماء، ويتم إنقاذ الطفل. هذا كل ما يجب فعله في هذه القضية؛ ما تم فعله قد تم. أمضي بعيداً، ولا أنظر إلى الوراء أبداً، ولا أفكر في الأمر بعد ذلك. تمر سحابة، والسماء زرقاء كما كانت دائماً وواسعة كما كانت. يصفها الزن بأنها "عمل بلا فضل" *(أنابوغاتشاريا)*، ويقارنها بعمل رجل يحاول ملء بئر بالمظاهر.

قال يسوع: "إذا تصدقت، فلا تدع شمالك تعلم ما تفعل يمينك، لكي تكون صدقتك في الخفاء". هذه هي "الفضيلة السرية" للبوذية. لكن عندما يتابع النص ليقول "فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً."، نرى انقسامًا عميقًا بين البوذية والمسيحية. طالما أن هناك أي فكرة عن أن أي شخص، سواء كان إلهاً أو شيطاناً، يعلم بأفعالنا ويكافئنا عليها، فإن الزن سيقول: "أنت لست واحداً منا بعد". إن الأفعال التي هي نتاج مثل هذا الفكر تترك "آثاراً" و"ظلالاً". إذا كان هناك روح تتعقب أفعالك، فسوف يمسك بك في وقت قصير ويجعلك تحاسب على ما فعلت؛ أما الزن فلن يقبل بذلك. الثوب المثالي لا يظهر عليه أي درزات، من الداخل والخارج؛ إنه قطعة واحدة متكاملة ولا يمكن لأحد أن يعرف من أين بدأ العمل، أو كيف تم نسجه. لذلك، في الزن، لا ينبغي ترك أي أثر للغرور أو تمجيد الذات حتى بعد فعل الخير، ناهيك عن فكرة المكافأة، حتى من الله.

يصف الفيلسوف الصيني ريشي (ليه تزو) هذه الحالة الذهنية بطريقة بالغة الوضوح:

"لقد سمحت لعقلي دون قيود أن يفكر فيما يحلو له، وللساني أن يتحدث عما يحلو له؛ ثم نسيت ما إذا كان "هذا وليس هذا" ملكي أم ملك الآخرين، وما إذا كان الربح أو الخسارة ملكي أم ملك الآخرين؛ ولم أكن أعرف ما إذا كان لاو شانغ شي معلمي وبا كاو صديقي." لقد تحولت تماماً من الداخل والخارج؛ وعندها أصبحت العين مثل الأذن، والأذن مثل الأنف، والأنف مثل الفم؛ ولم يكن هناك شيء لم يتم التعرف عليه. مع ازدياد تركيز ذهني، تلاشى الشكل، وذابت العظام واللحم؛ لم أكن أعرف على ماذا يستند جسدي، أو أين تطأ قدماي؛ كنت أتحرك مع الريح، شرقاً أو غرباً، مثل ورقة شجرة انفصلت عن جذعها؛ لم أكن أعي ما إذا كنت أركب الريح، أم أن الريح تركب عليّ."

يُطلق المتصوفون الألمان على هذا النوع من الفضيلة اسم "الفقر"؛ وتعريف تاولر هو: "الفقر المطلق هو فقرك عندما لا تستطيع أن تتذكر ما إذا كان أي شخص مدينًا لك أو مدينًا لك بأي شيء؛ تمامًا كما ستنسى كل الأشياء في رحلة الموت الأخيرة".

في المسيحية يبدو أننا نعي الله أكثر من اللازم، على الرغم من أننا نقول إننا فيه نحيا ونتحرك ونوجد. يسعى الزن إلى محو هذا الأثر الأخير من الوعي الإلهي، إن أمكن. ولهذا السبب ينصحنا معلمو الزن بعدم البقاء طويلاً حيث يوجد بوذا، والرحيل بسرعة حيث لا يوجد. إن كل تدريب الراهب في الزيندو، عملياً ونظرياً، يستند إلى مبدأ "العمل الذي لا يستحق الثناء". تُعبّر هذه الفكرة شعرياً على النحو التالي:

تتحرك ظلال الخيزران فوق الدرجات الحجرية

كما لو كان يُكنسها، ولكن لا يُثار أي غبار؛

ينعكس القمر في أعماق البركة، لكن

لا يظهر الماء أي أثر لتغلغله.

وبأخذ كل ذلك في الاعتبار، فإن الزن هو مسألة تجربة شخصية بشكل قاطع؛ وإذا كان هناك شيء يمكن وصفه بأنه تجريبي بشكل جذري، فهو الزن. لن يؤدي أي قدر من القراءة، ولا أي قدر من التدريس، ولا أي قدر من التأمل إلى جعل المرء سيد زن. يجب أن تُفهم الحياة نفسها في خضم تدفقها؛ إن إيقافها لفحصها وتحليلها هو بمثابة قتلها، وترك جثتها الباردة ليتم احتضانها. لذلك، تم ترتيب كل شيء في قاعة التأمل وكل تفاصيل منهجها التأديبي بطريقة تجعل هذه الفكرة تبرز بأكثر الطرق فعالية. إن المكانة الفريدة التي حافظت عليها طائفة الزن بين الطوائف البوذية الأخرى في اليابان والصين على مر تاريخ البوذية في الشرق الأقصى تعود بلا شك إلى المؤسسة المعروفة باسم قاعة التأمل، أو زيندو.

[1]إن أصلها، كما يعترف المؤلفون الشرقيون أنفسهم، هو "خطبة الزهور" لبوذا. وفي هذه المناسبة، رفع زهرة أمام مجموعة من الطلاب، دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم يفهمه سوى كاسابا. (شويج أوهاساما: زن. البوذية الحية في اليابان، 1925، ص 3.)

[2]انظر كتابه: ديانة الساموراي، 1913، ص 133.

[3]"الزن ليس علم نفس ولا فلسفة.

[4]أوتو في أوهاساما : زن , ص . viii.

[5]على الرغم من ذلك، حاولت تقديم "تفسيرات" فيما يلي، فأنا ما زلت أدرك تمامًا أنه بمعنى الساتوري (التنوير)، فإن ما أقوله لا يمكن أن يكون إلا عديم الفائدة. ومع ذلك، لم أستطع مقاومة محاولة توجيه فهمنا الغربي على الأقل إلى ما يشبه الفهم - وهي مهمة صعبة للغاية لدرجة أنه عند القيام بذلك يجب على المرء أن يتحمل على عاتقه جرائم معينة ضد روح الزن.
[6]انظر النصوص *Jahrhunderts* ،*aus dir deutschen Mystik des 14 und 15*، نشرها *1912* ،*Adolf Spamer*، ص. *143*.

[7]ويليام وايت : إيمانويل سويدنبورغ , 1867, مجلد. I, ص 243.

[8]"لا شك أن الزن هو أحد أثمن النعم الروحية التي أنعم بها الإنسان الشرقي، بل هو في كثير من النواحي أحد أبرزها. (سوزوكي: مقالات في بوذية الزن، الجزء الأول، ص 249.)

[9]يقول أحد المعلمين: "قبل أن يدرس الإنسان الزن، تكون الجبال بالنسبة له جبالاً، والمياه مياهاً". لكن عندما يحصل على لمحة عن حقيقة الزن من خلال تعليم معلم جيد، لم تعد الجبال جبالاً، ولا المياه مياهاً؛ ولكن لاحقاً، عندما يصل حقاً إلى مكان الراحة (أي يحقق الساتوري)، تعود الجبال جبالاً، والمياه مياهاً. (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 12.)
[10]ديانة الساموراي، ص *123*.

[11]"يتضمن التنوير نظرة ثاقبة على طبيعة الذات. إنه تحرير للعقل من الخداع فيما يتعلق بالذات ؟"

[12]L.c ص 132.
[13]كتاب الحياة المثالية الصغير . نُشر بواسطة إتش. بوتنر، *1907*.
[14]ميستر إيكهارت كتابات وخطب . نُشر بواسطة إتش. بوتنر، *1912*.

[15]هناك صورة مماثلة في الزن: عندما سئل المعلم عما تتكون منه البوذية، أجاب: "يتم كسر قاع الإبريق". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 217.) تشبيه آخر هو "انفجار الكيس". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الثاني، ص 100.)

[16]انظر . سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 220، 241. زن يدل على لمحة عن الطبيعة الأصلية للبشرية، أو الاعتراف بالإنسان الأصلي. (انظر أيضًا الصفحة 144.)

[17]"هناك الشجرة القديمة، جذورها تنمو لأعلى، فروعها لأسفل.... يطلق عليها براهمان، وهو وحده الذي لا يموت ". (كاثا-أوبانيشاد، 2 أدهيايا، 6 فالي، 1.)

لا يمكن افتراض أن هذا المتصوف الفلمنكي، الذي ولد عام 1273، قد استعار هذه الصورة من أي نص هندي.

[18]يوحنا من رويسبروك: زينة الزواج الروحي. ترجمة من الفلمنكية بواسطة سي. أ. وينشيك دوم، 1916، ص 47.

[19]المرجع السابق ص 51.

[20]المرجع السابق ص 57.

[21]المرجع السابق ص 62.

[22]"يا رب.... ارشدني في عقيدة غير الأنا "، وما إلى ذلك. (مقتبس من سوترا لانكافاتارا . (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 76.)

[23] يقول معلم الزن: "بوذا ليس شخصًا آخر ... يسعى جاهداً لرؤية هذا العقل". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 76.)

[24]يقول سوزوكي عن هذا التغيير، "إن الشكل السابق من التأمل قد تم التخلي عنه... الجمال الجديد لـ" العقل المنعش "أو" الجوهرة المتلألئة "." (مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 235.) انظر أيضًا الصفحة 93.

[25]"ساتوري هو الأكثر حميمية من بين جميع التجارب الفردية." (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 247.)

[26]يقول المعلم لطالبه: "ليس لدي في الواقع ما أقوله لك ... ولن أكون ملكك أبدًا". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الثاني، ص 69.)

يقول راهب للمعلم: "لقد سعيت إلى بوذا ... الذي تركب عليه". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الثاني، ص 59.)

يقول أحد المعلمين: "الفهم الذي لا يفهم، هذا هو بوذا. لا يوجد آخر." (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الثاني، ص 57.)

[27]سوزوكي: *تدريب راهب الزن البوذي*. كيوتو، *1934*.

[28]يقول سوزوكي (مقالات في بوذية الزن، الجزء الثاني، ص 46): "... وعي زن... وهو لمحة عن اللاوعي".

[29]يقول المبدأ الرابع من الزن، "النظر إلى طبيعة المرء وتحقيق البوذية" (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 7). عندما سأل راهب هوي نينغ عن التعليمات أجاب: "أرني وجهك الأصلي قبل أن تولد" (المرجع نفسه، ص 210). يقول كتاب زن الياباني، "إذا كنت ترغب في البحث عن بوذا، انظر إلى طبيعتك الخاصة، لأن هذه الطبيعة هي بوذا نفسه" (المرجع نفسه، ص 219). تكشف تجربة الساتوري عن "الرجل الأصلي" للمعلم *(*المرجع نفسه، ص 241). قال هوي نينغ: "لا تفكر في الخير، ولا تفكر في الشر، ولكن انظر ما هي ملامحك الأصلية في الوقت الحالي، والتي كانت لديك قبل أن تظهر إلى الوجود" *(*المرجع نفسه. الثاني، ص 28).

[30]يقول بودهيدهارما، مؤسس الزن في الصين: "... يجب أن يجهض كل جهد يبذله هؤلاء الرجال ". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 176.)

[31]أكثر احتمالاً من كونه مكملاً تماماً.

[32]لهذا يجب أن أحيل القارئ إلى الأدبيات الطبية والنفسية المتخصصة.

[33]هذه "الضرورة" هي فرضية عمل. يمكن أن يكون للناس، ولا يزالون، آراء مختلفة تمامًا حول هذا الموضوع. على سبيل المثال، هل المفاهيم الدينية "ضرورية "؟ فقط مسار الحياة الفردية يمكن أن يقرر ذلك، أي التجربة الفردية. لا توجد معايير مجردة لذلك.

[34]"عندما يميز العقل، هناك تعدد في الأشياء ؛ عندما لا يفعل ذلك، فإنه ينظر إلى الحالة الحقيقية للأشياء." (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 88.)

[35]انظر المقطع الذي يبدأ، "اجعل عقلك يحب الفضاء...." (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 209.)

[36]في هذا الصدد، يجب أن أذكر أيضًا الصوفي الإنجليزي، ويليام بليك. راجع التمثيل الممتاز في دائرة القدر لميلتون أو. بيرسيفال ويليام بليك. مطبعة جامعة كولومبيا 1938.

[37]تشير عبقرية اليونانية إلى اختراق الوعي إلى مادية العالم، حيث سُرقت الأخيرة من حلمها الأصلي.

[38]و. واي. إيفانز-وينتز: كتاب الموتى التبتي. راشر، زيورخ، 1934.

[39]"الزن ليس هواية، بل هو أخطر مهمة في الحياة. لن يغامر أي رأس فارغ بالقرب منه ". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 26.) انظر أيضًا الصفحة 48.

[40]يقول المعلم: "عندما تبحث عن البوذية ... لن تصل إلى الحقيقة أبدًا". (سوزوكي: مقالات في البوذيةالزينية، الجزء الأول، ص 222.)

[1] على وجه الدقة، يتم شرح الأفكار الأساسية للماهايانا في مجموعة براجناباراميتا للأدب البوذي، والتي يجب أن تكون قد ظهرت في أقرب وقت ممكن في غضون ثلاثمائة عام من وفاة بوذا. الجراثيم لا شك في الكتابات التي تنتمي إلى ما يسمى البوذية البدائية. فقط تطورهم، أي الفهم الواعي لهم على أنهم الأكثر أهمية في تعاليم المؤسس، لا يمكن أن يتحقق دون أن يعيش أتباعه بالفعل التعاليم لبعض الوقت من خلال ظروف الحياة المتغيرة بشكل مختلف. وهكذا، بعد أن اكتسبوا الخبرة ونضجوا في التأمل، توصل البوذيون الهنود إلى شكل الماهايانا من البوذية، والذي تميز عن شكلها البدائي أو الأصلي. هناك مدرستان معروفتان للماهايانا في الهند: مدرسة مادياميكا في ناغارجونا وفيجنابتماترا أو يوغاكارا في أسانغا وفاسوباندو. في الصين تطورت المزيد من المدارس: تينداي *(t'ien-tai)*، كيغون *(avatamsaka)*، جودو *(ching-t'u)*، زن *(ch'an)*، إلخ. في اليابان لدينا إلى جانب ذلك هوك، شينجون، شين، جي، وما إلى ذلك. جميع هذه المدارس أو الطوائف تنتمي إلى جناح الماهايانا من البوذية.

[2]انظر أدناه.

[3] *Za* تعني "الجلوس"، ويمكن اعتبار zazen باختصار على أنه يعني "الجلوس في التأمل". ما يعنيه بالضبط سيتم رؤيته لاحقًا فيما يتعلق بوصف "قاعة التأمل" (zendo، باليابانية.؛ *ch 'an - t*'ang، بالصينية.).

[1]آرثر لويد: القمح بين الفطائر، ص 53.

[2]ص. 255

[3]دراسات البوذية في اليابان، الصفحة *118*.

[1] يتم نطق Hui - neng Wei - lang بلهجة شنغهاي.

[2] ما تعنيه نظرية الشونياتا (الفراغ) حقًا موضح إلى حد ما بالتفصيل في مقالاتي في بوذية الزن، الثالثة، تحت عنوان "فلسفة ودين براجنابارامیتا- سوترا" (ص 207-88).

[3] انظر أيضًا الاقتباس من سيكيسو، أعلاه، الذي غالبًا ما يساء فهمه على أنه يدعو صراحة إلى عقيدة الإبادة. للحصول على اللغة السنسكريتية الأصلية، والترجمة الصينية لهسوانشوانغ، وترجمة إنجليزية أكثر أدبية ودقة، انظر مقالاتي في بوذية الزن، الثالث، ص 190-206، حيث يعطي المؤلف تفسيره الخاص لمغزى هذه السوترا المهمة.

[4] يمكن اعتبار هذا متوافقًا مع إينانتيودروميا هرقليطس، الوظيفة التنظيمية للنقيض.

[5] هذا مأخوذ من عمل دايجو ييكاي (تل تشو هويهاي)، تلميذ باسو (ماتسو، توفي 738). للاطلاع على اقتباسات أخرى، انظر إلى مصادر أخرى.

[1] Goso Hoyca (Fa - yen of Wu - tsu - shan).

[2] يونغ تشيا في "أغنية التنوير"

[1] عصا يبلغ طولها حوالي قدم ونصف، مصنوعة من الخيزران المشقوق المرتبط بالراتان. يُلفظ *ship - pei*

[2] نشأ الزن، في تناقض مع المدارس البوذية الأخرى، في المقاطعات الجنوبية من الصين.

[3] معاصر أصغر سناً لكوي شان (771–853).

[4] تلميذ تي ين- لونغ ، من القرن التاسع.
[5] نقل المصباح *(*تشوان - تنغ لو *)*، المجلد. *15.*

[1] كان دايجو إيكاي، أو تاشو هوي هاي باللغة الصينية، تلميذًا لماتسو (توفي 788)، وعمله، الذي يمكن أن يصبح "أطروحة حول جوهر الصحوة المفاجئة"، في ملزمتين، يعطي التعاليم الرئيسية للزن كما هو مفهوم آنذاك.

[2] تلميذ لما تسو. كان صيادًا قبل التحول، ولمقابلته مع ما - تسو ، انظر مقالاتي في بوذية الزن، III، تحت عنوان "- Shih kung and San - ping"، بقلم Motonobu Kano.

[1] يتم التعامل مع هذا الموضوع بشكل كامل في مقالاتي في بوذية الزن، الجزء الأول، ص 215-50، وكذلك في الجزء الثاني، ص 4 وما يليها.

[2] 1089-1163. تلميذ ينغو. انظر ص 86.

[1] للحصول على معالجة أكمل للموضوع، انظر مقالاتي في بوذية الزن، 2.

[2] براجنا هي أعلى قوة حدس تبدو في أعماق حياتنا الروحية، وهي بطبيعة الحال أكثر بكثير من مجرد قوة فكرية. لمزيد من المعلومات، اقرأ فصلًا عن Prajnaparamita في مقالاتي في بوذية الزن، III.

[31] جميع الكائنات الحية، مهما كانت لا نهائية، أقسم على سلامتها. 2. كل العواطف، مهما كانت لا تنضب، أقسم على قطعها إربًا. 3. جميع التعاليم المقدسة، مهما كانت لا حصر لها، أقسم على تعلمها. 4. جميع طرق بوذا، مهما كانت لا يمكن تجاوزها، أقسم على الوفاء بها.

[4] فيما يتعلق بممارسة الزازن في اليابان، انظر مقالاتي في بوذية الزن، الجزء الثاني، ص 284-7.

[5] في الوقت الحاضر، تعد البوذية الصينية مزيجًا غريبًا من الزن والنمبوتسو، على الرغم من أن معظم الأديرة تعلن أنها تنتمي إلى طائفة الزن. يقرأون سوترا أميتابها جنبا إلى جنب مع براجناهريدايا .

[6] هذه هي بعض أو أول الكوآن لطلاب الزن.

[1] تم التعامل مع هذا بشكل كامل في عملي الأخير بعنوان تدريب راهب الزن البوذي، والذي صوره بشكل غني القس زنكبو ساتو، من كاماكورا. انظر أيضًا مقالات في بوذية الزن، الجزء الأول، ص 299 وما يليها.

[2]) راجع مزمور 128: "تَأْكُلُ شَغْلَ يَدِكَ ؛ سَتَكُونُ طَيِّبًا، وَتَكُونُ حَسَنًا مَعَكَ."

[3] ساريرا (شاري باليابانية. و she - li بالصينية.) تعني حرفيًا "الجسم"، ولكن في البوذية هو نوع من الرواسب المعدنية الموجودة في جسم الإنسان بعد الحرق. يفهم البوذيون أن قيمة هذه الرواسب تتوافق مع قداسة الحياة.